

الخطاب الإعلامي الفلسطيني المعاصر "دراسة دلالية في ضوء البلاغة العربية"

Contemporary Palestinian Media Discourse
"a Semantic study in the light of Arab Rhetoric"

صادق أبو سليمان

Sadek Abu Soliman

قسم اللغة العربية. كلية الآداب. جامعة الأزهر. غزة. فلسطين.

بريد الكتروني: profdrsadeq@hotmail.com

تاريخ التسليم: (٢٠٠٧/٠٧/١٤). تاريخ القبول: (٢٠٠٧/١٢/١٦)

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تلمس خصائص الخطاب الإعلامي بصفة عامة وفق الموروث في علم البلاغة العربية "Arab rhetoric"، فبدأت ببيان مفهوم الخطاب "Discourse" ومقوماته وأقسامه ووسائله التعبيرية بصفة عامة؛ لتتحدث عن الخطاب الإعلامي، وخصائصه، ومتطلبات إبلاغه وأهمها المفاعلة بين عناصر الخطاب - من شكل ومضمون - والمقام، أو ما اصطلح عليه في علم الدلالة "Semantics" عند علماء اللغة "Linguists" بسياق الحال "context of situation"؛ لئتناسب ومدارك المتلقي ومستواه. وهذا جانب من الدرس نراه يؤصل لمفهوم الخطاب عند أسلافنا ويصله بما جاء عن المحدثين، وكذلك يلفت إلى أهمية الرّبط بين علوم اللغة بصفة عامة والإعلام، ويدكرُ باعتماد الإعلام العربي في بداياته الأولى على دارجي اللغة العربية وعلومها. وخاضت الدراسة في أدوات صانع الخطاب الإعلامي؛ ليستفيد منها إعلاميون المعاصرون في تثقيف أنفسهم بمستلزمات صناعتهم، وليتسنى لهم امتلاك أزمنة بيانها، وكجانب تطبيقي كان اهتمام الدراسة بعرض مظاهر من الإعلام التّفقي - حيث تُشكّل النّفعيّة أهمّ خصائص الخطاب السياسيّ الإعلامي -، ومنها: التزوير الدلالي، والترجمة المقاومة، وعدم التّحرّي والتّسرّع في إعلان الخبر، وعدم المصادقية ... إلخ، وانتهت الدراسة بالتوصيات والمراجع.

Abstract

This study aims to provide a broad exploration of the media discourse in terms of Arab rhetoric conventions. The study started by explaining the term 'discourse', its aspects, types, and means of

expression in general; moving from whence to discuss its characteristics, requirements for its delivery, in particular the interaction between its constituents - both form and content – or what has been termed as “context of situation” by semanticians; all of which are aimed to suit recipients in their various levels of understanding. This section draws attention to the vital need to establish connections between linguistics and media pointing out that at earliest phases, Arab media relied heavily on Arabic language researchers. The study then elaborated on the instruments available to the media discourse developers to help them master their craft. At the practical level the study reviewed manifestations of pragmatics, which is one of the most salient features of political media discourse, as clear in misrepresentation, resisting translation, unverified and precarious news delivery and lack of authenticity. The study then concluded with recommendations and references.

توطئة:

الخطابُ "Discourse" - بحسب فهمنا - هو قناة الوصل أو طريق التعبير الذي يصل المنتج بالمتلقي، ويكشف عن فكر مُنتجِه أو ثقافته، بل الكاشف عن شخصيته بكل خصائصها، وقد عبّر النقاد والفلاسفة عن هذا المعنى حين قالوا: إنَّ الأسلوب هو الأديب أو الرَّجُل بل هو صاحبه؛ أي إنه المُنبئُ عنه، وقد خاطبَ أحدُ الفلاسفة المُربِّينَ أحدَ جلسائه الصامتين بقوله: يا هذا كَلِّمْنِي حَتَّى أراك!

ويتجلى هذا المعنى عندما نرى من ينسب نصاً لأحد المبدعين فنرى الخبير المتمرس يدرك بحسب أن هذه النسبة ليست صحيحة؛ ويقول: هذا النصُّ لا ألمسُ فيه نَفْسَ هذا المبدع، أو أنه لا يتفقُ في خصائصه وما أعرَفُه من خصائص أسلوبية لخطابه.

وقد لمسنا هذا المعنى عند القدماء والمُحدثين؛ فهذا عبد القاهر الجرجاني، وهو يتحدث عن العلاقة الوطيدة بين النص ومبدعه يفصح فيقول: "ينبغي ألا يشتبه أن الشعر لا يختص بقائله من جهة أنفس الكلم وأوضاع اللغة، ويزدادُ تبييناً لذلك بأن ينظرَ في القائل إذا أضفته إلى الشعر فقلت: (امرؤ القيس قائل هذا الشعر)، من أين جعلته قائلًا له؟ أم من حيث نطقَ بالكلم وسمعتَ ألفاظها من فيه، أم من حيث صنعَ في معانيها ما صنع، وتَوَخَّى فيها ما تَوَخَّى؟ فإن زعمتَ أنك جعلته قائلًا له من حيث إنه نطقَ بالكلم وسمعتَ ألفاظها من فيه على النَّسَقِ المخصوص، فاجعل راوي

الشعر قائلاً له، فإنه ينطقُ بها ويخرجها من فيه على الهيئة والصورة التي نطقَ بها الشاعر، وذلك ما لا سبيل لك إليه"^(١).

وأوضح الباقلائي أنَّ العالم "إذا عرفَ طريقةَ شاعرٍ في قصائدٍ معدودةٍ، فأنشَدَ غيرها من شعره، لم يشكَّ أن ذلك من نسجه، ولم يرتبُ في أنه من نظمه، كما أنه إذا عرفَ خطَّ رجلٍ لم يشنَّبه عليه خطُّه حيثُ رآه من بين الخطوط المختلفة، وحتى يُميِّزَ بينَ رسائلِ كاتبٍ وبينَ رسائلِ غيره"^(٢).

ويقول دي لوفر: "إنَّ الأسلوبَ الفرديَّ حقيقةً بما أنه يتسنى لمن كان له بعض الخبرة أن يميِّزَ عشرينَ بيتاً من الشعر إنَّ كانت لراسين (Racine) أم لكرناي (Corneille)، وأن يميِّزَ صفحةً من النثر إنَّ كانت لبلزاك (Balzac) أم لستاندال (Stendhal)"^(٣).

ويقول ريمون طحان: "إنَّ الأسلوبَ ينبع من ذاتية الفنان أو الكاتب (نظرية Buffon)، ومع أن اللغة مشاعٌ لمجموعةٍ بشريةٍ معينة فإن استعمالها يتنوع بحسب الأفراد الذين ينتفعون بها، حتى إنه ليقال: إن لكلَّ امرئٍ لغته، بمعنى أنه يفرد في أسلوبه عن المجموعة التي ينتمي إليها"^(٤)؛ الأمر الذي يذكِّرنا بالأديب المهجريَّ المبدع جبران خليل جبران حين خاطبَ نقاده قائلاً: "لكم لغتكم ولي لغتي".

وليس هذا الربطُ بين الخطابِ والمخاطبِ إلا لأنَّ الخطابَ يُشكِّلُ جزءاً من مبدعه؛ فهو يصدُرُ من مخزونه- لغةً ومضموناً وذوقاً وتجاربَ حياة- الذي تُشكِّلُ فيه عبرَ سني عمره، وقد جاء هذا المضمونُ الكاشفُ عن علاقةِ النصِّ أو الخطابِ بصاحبه بألفاظٍ وتراكيبٍ أكثرَ صراحةً عندَ غير واحدٍ من العلماء.

فمن علماء العربية وجدنا مثلاً عبدَ القاهر الجرجاني يفيض في الربطِ بين الأسلوبِ وصاحبه، وهو يرى أنك: "تعرف من البيت الواحد مكانَ الرجل من الفضل، وموضعَهُ من الحذق، وتشهد له بفضلِ المنة وطولِ الباع، وحتى تعلم إنَّ لم تعلم القائل أنه من قِبَلِ شاعرٍ فحلَّ، وأنه خرج من تحت يدِ صنَّاع"^(٥).

- (١) الجرجاني، عبد القاهر. (١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م). دلائل الإعجاز. ط٦. صحح أصله: الإمام محمد عبده والشيخ محمد محمود الشنقيطي. وصحح طباعته. وعلقَ حواشيه: السيد محمد رشيد رضا. مكتبة و مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر. ص ٢٣٤.
- (٢) الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيب. (١٩٨٠م). إعجاز القرآن. ط ٥. تحقيق السيد أحمد صقر. دار المعارف. مصر. ص ١٢٠. ويُنظر ص ٦٤٩ من الكتاب ذاته في طبعته الملحقة بكتاب الإتيان للسيوطي.
- (٣) المسدي، د. عبد السلام. (د.ت): الأسلوبية والأسلوب. دار العربية للكتاب. ليبيا- تونس. ص ٦٠.
- (٤) طحان، ريمون. (١٩٧٢م). الألسنية العربية. ط١. سلسلة الألسنية (٢). تصدر بإشراف: د. أنيس فريجة ود. ريمون طحان. دار الكتاب اللبناني - بيروت. ص ١١٦.
- (٥) دلائل الإعجاز. ص ٧٢.

ومن علماء الغرب يأتي بوفون- الذي أثار في رواد النقد الأدبي ومنظري الأسلوب من بعده من أمثال شوبنهاور و فلوبيير^(١)- فيقول: "إن من الهين أن تنتزع المعارف والأحداث والمكتشفات أو أن تبدل، بل كثيراً ما تترقى إذا ما عالجهما من هو أكثر مهارة من صاحبها، كل تلك الأشياء هي خارجة عن ذات الإنسان؛ أما الأسلوب فهو الإنسان عينه؛ لذلك تعذر انتزاعه أو تحويله أو سلخه"^(٢)، أو "الرجل نفسه" بترجمة عز الدين إسماعيل^(٣).

وخلص المسدي إلى أن نظرية تحديد الأسلوب- أو الخطاب بمصطلح هذه الدراسة- تنتزل "منزلة لوحة الإسقاط الكاشفة لمخبات شخصية الإنسان، ما ظهر منها في الخطاب وما بطن، ما صرح به وما ضمن؛ فالأسلوب جسر إلى مقاصد صاحبه من حيث إنه قناة العبور إلى مقومات شخصيته، لا الفنية فحسب بل الوجودية مطلقاً"^(٤).

وإذا كان الدكتور أحمد الشايب قد أوضح أن الأسلوب يختلف باختلاف الموضوع، أو "هو الموضوع" فإنه في السياق ذاته يذكر أن "الأسلوب هو الأديب، أو هو الرجل"^(٥).

وهكذا فإنه يمكن القول إن لكل صاحب خطاب بصفة أسلوبية يتميز بها، وتدل عليه عند خبير الأسلوب، وهذا التمايز الأسلوبي- كما نرى - لا نراه يتعارض وحرصه على مراعاة مستوى متلقيه أو مخاطبه (بفتح الطاء) واحتياجاته، وجنوحه للوصول إليه باللغة التي يفهمها، وليس من شك في أن هناك تفاعلاً بين المخاطب والمخاطب والنص تنبئ آثاره في الخطاب، وذلك على النحو الذي تسعى سطور الدراسة إلى بيانه.

أقسام الخطاب:

أود في هذا المقام العلمي أن أقسم الخطاب بصفة عامة قسمين رئيسين هما:

الخطاب الخاص:

ويتمثل في الخطاب الذي يدور بين أفراد جماعة متخصصة من الجماعات التي تتفق في مجال معين من مجالات الحياة، وله مفرداته وتراكيبه أو مصطلحاته المفردة والمركبة الخاصة بهؤلاء القوم، ومنه خطاب العلماء أو الأدباء أو أصحاب الفن أو أصحاب الوظيفة أو الصنعة الواحدة، وهلم جرا.

(١) إسماعيل، عز الدين. (١٩٥٨م). الأدب وفنونه- دراسة ونقد. ط٢. دار الفكر العربي. ص٢٦+ الأسلوبية والأسلوب. ص٦٧.

(٢) الأسلوبية والأسلوب. ص٦٧.

(٣) الأدب وفنونه- دراسة ونقد. ص٢٦.

(٤) الأسلوبية والأسلوب. ص٦٧-٦٨.

(٥) الشايب. أحمد. (١٣٦٩هـ = ١٩٧٦م). الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية. ط٧. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ص ١٢١.

ويدخل في هذا الإطار الخطاب المكتوب أو الشفوي الذي تنتج كل جماعة منها لتعليم تلامذتها أو مخاطبة مُريديها وندمايها، كالخطاب العلمي والخطاب النقوي والخطاب الأدبي والخطاب اللغوي والخطاب الفني ... إلخ.

الخطاب العام:

وهو الموجّه - في الأغلب - لكل أفراد المجتمع دون تمييز، وذلك بغض النظر عن بيئاته أو طبقاته، وقد أسمّيه أيضاً بـ "الخطاب الجماهيري" وهو خطاب تنقيفي عام، لكل من أنواعه أو أجناسه أهدافاً خاصة به، ويندرج في إطاره - فيما نرى - الخطاب الإعلامي الموجّه - في الأغلب الأعم - إلى أفراد فئات الشعب كله بمختلف طبقاته دون تمييز.

ويشتمل هذا اللون من الخطاب على أنواع، أهمها: الخطاب السياسي، والخطاب الديني، والخطاب الاجتماعي التنقيفي العام بوسائله المتنوعة من مسارح ودور خيالة ومنتديات ثقافية وإذاعات مسموعة ومرئية وصحف ومجلات وغيرها.

عملية الخطاب:

- وإذا كان المنتج أو المنشئ أو المصدر بل المخاطب (بكسر الطاء) هو أساس الخطاب فإنّ تمام عملية الخطاب لا يكون إلا بتظافر^(١) ثلاثة عناصر أخرى، وهي:
- المُستقبل أو المُتلقي المقصود أو المُستهدف بالخطاب بل المخاطب (بفتح الطاء).
- المضمون أو المحتوى أو الموضوع أو الفكرة أو الرسالة أو النص.
- وسيلة الخطاب، وهي أداة التوصيل، وإن شئت فقل: هي الوسيلة التعبيرية التي تحمل مضمون المنتج لتوصيله إلى المُتلقي أو المُستقبل أو المخاطب.

وسائل الخطاب:

تتنوع وسائل الخطاب؛ فقد تكون وسيلة الكلمة مسموعة أم مكتوبة، أو الصورة، أو الرسم، أو الإشارة "Gesture"، وتشتمل الحركة الجسمانية^(٢) التي يُصنّفها الإنسان مستقلة، أو مصاحبة للغة الشفهية أو المقروءة بإرادته أو غيرهما، وتُسهم في توضيح المعنى، أو التي يصنّفها لأغراض التوصيل أو التعليم والإرشاد؛ كإشارات لغة الصم والبكم، ومرور المشاة،

(١) تظافر وتضافر كلا اللفظين صحيح. إذ ورد عن العرب النطق بالضاد والطاء.
 (٢) اختصّ المحدثون هذا النوع من الخطاب بعلم أسميه "علم لغة الجسم". وسَمَّته د. فاطمة محجوب. "علم الحركة الجسمانية". أو "علم الكينات" "Kinesics". وهو جزء من علم الأتصال. "وقد تحدثت عنه. وأوضحت الروابط التي تربطه بلغة الكلام. مع إجراء تطبيقات له على الحركة الجسمانية عند المصريين". وآيات من القرآن الكريم. يُنظر: محجوب، فاطمة. (١٩٧٦م). دراسات في علم اللغة. دار النهضة العربية. القاهرة. ص. ل. م. ١٠٠-١٠٥. ١٥٩-٢٠٥.

والإشارات الإرشادية لحركة المواصلات المعتمدة على الضوء أو الكتابة أو اللون -، أو سياق الحال أو الموقف أو المقام "context of situation"، وكما هو واضح فإنه قد يجتمع للخطاب- في آن واحد- أكثر من وسيلة.

وقد أشار قدمائنا إلى وسائل الخطاب، فقال الجاحظ (ت. ٢٥٥هـ): "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظٍ وغير لفظٍ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة؛ والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بانه من صورة صاحبها، وحينئذ مخالفة لحيية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، وعن حقائقها في التفسير"^(١).

وجعل ابن عبد ربّه (ت. ٣٢٨هـ) عناصر البلاغة أو البيان أربعة، فقال: "البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة، وكل منها له حظ من البلاغة والبيان، وموضع لا يجوز فيه غيره، ومنه قولهم: لكل مقام مقال، ولكل كلام جواب، ورب إشارة أبلغ من لفظ. فأما الخط والإشارة فمفهومان عند الخاصة، وأكثر العامة، وأما الدلالة فكل شيء ذلك على شيء، فقد أخبرك به، كما قال الحكيم: أشهد أن السموات والأرض آيات دالات، وشواهد قائمات، كل يؤدي عنك الحجة، ويؤدي لك بالربوبية"^(٢).

ومن شواهد على بيان الدلالة قول الشاعر نصيب بن رباح: (الطويل)

فعاوجوا فأتتوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

وعلق عليه بقوله: "يريد لو سكتوا لأثنت عليك حقائب الإبل التي يحتقبها الركب من هياتك، وهذا التناء إنما هو بالدلالة لا باللفظ".

ومن ذلك أيضا ما لاحظته في قول العباس بن الأحنف (ت. ١٩٢هـ): (الطويل)

كفى حزناً أنني أرى من أحببه قريباً ولا أشكو إليه فيعلم
فإن بحثت نالني عيون كثيرة وأضعف عن كتمانته حين أكنم
وأقسم لو أبصرتنا حين نلقني ونحن سكوت خلتنا نكلم
تري أعيناً تبدي سراير أنفس مراض ودمعاً بعد ذلك يسجم

(١) الجاحظ. أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين. ط ٥. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. د. ت. + طبعة مكتبة الخانجي. القاهرة. (١٩٨٥م). ج ١/ ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) ابن عبد ربّه الأندلسي. (١٩٨٧م). العقد الفريد. ط ٣. ج ٢. تحقيق: د. مفيد قميحة. دار الكتب العلمية. بيروت. ص ٣٠٢. ونقل عنه أيضاً: النويري شهاب الدين. (١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م). في كتابه: نهاية الأرب في فنون الأدب. ج ٧. تصحيح: أحمد الزين. دار الكتب المصرية. القاهرة. ص ٨.

إنَّ تَفْخُصًا فِيمَا جَاءَ عَنِ الْعَالَمِينَ الْجَلِيلِينَ: الجاحظ وابن عبد ربّه في هذا المجال من نصوص وشواهد سَيُثَبِتُ أَنَّ بَضَاعَةَ الْلاحِقِ مِنْ بَضَاعَةِ سَابِقِهِ، وكما هو واضح فإنَّ عناصرَ البلاغة والبيان عند ابن عبد ربّه هي عناصرُ الجاحظ التي ذكرها في "باب البيان" باستثناء العَقْدِ فقط، وإنَّ ما عناه الجاحظ بـ "الحال أو النَّصْبَةِ" سَمَاهُ الْأَخِيرُ بـ "الدلالة"، وإنَّ "الحكيم" الذي جاء الأخيرُ ابنُ عبد ربّه بِنَصِّهِ تَوْضِيحًا لِمَعْنَى مُصْطَلَحِهِ "الدلالة" هو "بعض الخطباء" الذي أوردَهُ الجاحظُ فِي نَصِّهِ الَّذِي اسْتَفَادَ مِنْهُ - كما هو بَاطِنٌ - ابنُ عبد ربّه.

وكما هو واضح فإنَّ للبيان أو الخطاب - بمصطلح هذه الدراسة - وسائلَ تكشفُ عنه، ويلجأ إليها المَنْتَجُ لِيُوصِلَ مضمونَهُ أو رسالَتَهُ إلى المُسْتَقْبِلِ أو المُرْسَلِ إليه، وهي وسائلٌ لا تَقْتَصِرُ على اللغة المنطوقة، وإنما تشملُ أيضًا المكتوب: رمزُ اللغة المنطوقة؛ والإشارة؛ والحال أو النَّصْبَةِ أو الدلالة، وهي العناصر التي اتفق عليها الرَّجُلَانُ؛ أمَّا العَقْدُ وهو "الحساب" ... فالدليل على فضيلته وعَظَمِ قَدْرِ الانتفاع به - كما يقول الجاحظ -، قولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: "فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ"^(١)، وقال جَلَّ وَتَقَدَّسَ: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا"^(٢)، وقال جَلَّ وَعَزَّ: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ"^(٣)، وقال: "وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ"^(٤)، وهو "يشتمل على معانٍ كثيرةٍ ومنافعٍ جليلَةٍ، ولولا مَعْرِفَةُ الْعِبَادِ بِمَعْنَى الْحِسَابِ فِي الدُّنْيَا لَمَا فَهَمُوا عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعْنَى الْحِسَابِ فِي الْآخِرَةِ".

والعَقْدُ - كما هو واضح من شواهد الجاحظ - نظامٌ مُطَرِّدٌ يَأْلَفُهُ الْإِنْسَانُ وَيُعَوَّلُ عَلَيْهِ فِي الإدراك والفهم، ونحن نراه مُنْضَمَّنًا فِي عناصر البيان الأربعة التي اعتدَّ بها صاحبُ العَقْدِ الفريدِ "ابن عبد ربّه؛ فالْحِسَابُ مِنْ مَعَانِي الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ الَّتِي تُؤَدِّي لَفْظًا وَحَطًّا وَإِشَارَةً.

وإذا كانت هذه العناصرُ البَيَانِيَّةُ أو البلاغيَّةُ مِنَ الْأَشْيَاءِ أو الدلائل التي يُمكن إدراكها أو استكشافها والتعويلُ على استنباطات المُتَلَقِّي أو المُسْتَقْبِلِ مِنْهَا فَهَلْ يُمكنُ لِلسُّكُوتِ أو الصَّمْتِ أَنْ يَكُونَ وَسِيلَةً بَيَانِيَّةً دَالَّةً يُمكنُ لِلْمُسْتَقْبِلِ الْاسْتِفَادَةَ مِنْهَا، والتعويلُ عليها أيضًا؟

(١) سورة الأنعام. الآية: ٦٩.

(٢) سورة الرحمن. الآيات: ١-٥.

(٣) سورة يونس. الآية: ٥.

(٤) سورة الإسراء. الآية: ٢١.

أقول: لسنا نُنكرُ - في هذا المجال - أن يكونَ للسُّكوتِ أو الصَّمْتِ في مقاماتٍ أو أحيانٍ معينةٍ دلالاتٌ معنويةٌ، وقديماً قالت العرب في المثل: "ربُّما كانَ السُّكوتُ جواباً"^(١)، وقالوا: "لو كان الكلامُ من فضةٍ لكان السُّكوتُ من ذهبٍ"^(٢).

وقال الشاعر^(٣): (المنسرح)

إِنْ كَانَ مِنْ فِضَّةٍ كَلَامُكَ نَفْسُ فَإِنَّ السُّكُوتَ مِنْ ذَهَبٍ

وقد وجدنا شعراءَ العربية في مختلفِ عصورهم يُشيرونَ إلى دلالاتِ السُّكوتِ، فقال الشاعر أبو العتاهية: (ت. ٢١٣هـ) (الوافر)

وَكَأَنْتَ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ فَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْ عَظَ مِنْكَ حَيًّا

وقال محمد بن أبي العتاهية: (ت. ٢٤٤هـ) (مُخَلِّع البسيط)

مَا كُلُّ نُطْقٍ لَهُ جَوَابٌ جَوَابُ مَا تَكَرَّهُ السُّكُوتُ

وقال ابن دريد الأزدية: (ت. ٣٢١هـ) (الرَّجَز)

جَوَابُ سُوءِ الْمَنْطِقِ السُّكُوتُ قَدْ أَفْلَحَ الْمُتَيْدُ الصَّمُوتُ

وقال ابن رشيق القيرواني: (ت. ٣٢٨هـ) (مجزوء الرمل)

يَهَا الْمُوْحِي الْيُنَا نَقْتَةُ الصَّلِّ الصَّمُوتُ
رُبَّ نُطْقٍ فِي السُّكُوتِ مَا سَكَّنَا عَنْكَ عِيًّا

وقال أيضاً:

وَأَخْرَقَ أَكْالَ اللَّحْمِ صَدِيقَهُ وَلَيْسَ لِجَارِي رِيْقَهُ بِمُسِيغٍ
سَكَّتْ لَهُ ضَنْأً بَعْرُضِي فَلَمْ أُجِبْ وَرُبَّ جَوَابٍ فِي السُّكُوتِ بَلِيغٍ

(١) الأوثني، أبو عبيد البكري. (١٩٥٨م). فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. ط١. حققه وقدم له: د. عبد

المجيد عابدين، ود. إحسان عباس. مطبوعات جامعة الخرطوم. مطبعة مصر. الخرطوم. ص٤٧.
(٢) البيان والتبيين. ج/١ ص١٩٤+ الخفاجي. ابن سنان. (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م). سر الفصاحة. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت. ص٦٢.

(٣) المجمع الثقافي - أبو ظبي. (١٩٩٧-٢٠٠٣م). الموسوعة الشعرية. الإصدار الثالث - قرص مدمج. وقد نُسبت الموسوعة الشعرية هذا البيت. والقطعة التي جاء فيها إلى علي بن أبي طالب. (ت. ٤٠هـ). وهي موجودة في ديوان الإمام والموسوعة في قطعةٍ عدة أبياتها أربعة. يُنظر: علي بن أبي طالب. (د.ت). ديوان الإمام علي أمير المؤمنين. وسيد البلغاء والمتكلمين. ويليه القصيدة الكثرية. جمع وترتيب عبد العزيز الكرم. الناشر. المكتبة الثقافية. بيروت. لبنان. ص٢٠. وكذلك نسبت الموسوعة هذا البيت إلى: عبد الله بن المبارك. (١٨١هـ). في القطعة ذاتها. ولكن بزيادة بيتٍ خامس لتصير عدة أبياتها خمسة.

وقال جرمانوس فرحات: (ت. ١١٤٥هـ = ١٧٣٢م) (الكامل)

ما كلُّ مَنْ نادى يُجابُ نداؤهُ إنَّ السُّكوتَ عن الجوابِ جوابٌ

وفي هذا المقام نستذكر الحديثَ النبويَّ الشريفَ: "البِكرُ سُتْأمرُ، وإدْئها صمائها، والنَّيبُ تُعربُ عن نفسها"؛ وعليه فإنَّ كان من غير المنطق أو العذل أن ننسب لساكتٍ كلاماً ملفوظاً فإنَّ استنباط معانٍ كامنةٍ في باطنه: تُنبئُ عنها كفيئته أو قرائنه في أحوالٍ معينةٍ ليس مُستَهْجَناً أو مُستَغْرَباً، ويمكن للمستنبط أن يسترشد بها أو يُعوَّلَ عليها، فالسكوتُ في أحيانٍ الحاجة بيان.

وإنَّ ما جاء عن الأصوليين في هذا المجال يشكُّ دلالة واضحة على ما نذهب إليه؛ حيث أثبتوا للسكوت دلالات؛ فأشاروا إلى أنَّ "موضوع القياس طلب أحكام الفروع المسكوت عنها من الأصول المنصوصة بالعلل المستنبطة من معانيها؛ ليُلحَق كلُّ فرع بأصله"^(١)، وإذا كانت الدلالات - في هذه الحالة - مستنبطة من غير ملفوظ فإنهم ألحقوها باللفظية في ثبوت الأحكام بها، وقسموها أقساماً، منها: ما يلزم عند مذكور مسكوت عنه، ودلالة حال الساكت الذي وظيفته البيان... الخ^(٢).

ويشكُّ السُّكوتُ أو الصَّمْتُ - فيما نفهم - جزءاً لا يتجزأ من مضمون مصطلح "النَّصْبَةُ" الذي جعله الجاحظ أحد عناصر البيان، وعرفه ودلَّل عليه بقوله: "وأما النَّصْبَةُ فهي الحالُ النَّاطقةُ بغير اللفظ، والمشيرةُ بغير اليد، وذلك ظاهرٌ في خلق السموات والأرض، وفي كلِّ صامتٍ وناطقٍ، وجامدٍ ونامٍ، ومقيمٍ وظاعنٍ، وزائدٍ وناقصٍ؛ فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطقٌ من جهة الدلالة، والعجماء مُعْرَبَةٌ من جهة البرهان؛ ولذلك قال الأول: سل الأرض فقل: مَنْ شَقَّ أنهارك، وعَرَسَ أشجارك، وجَنَى ثمارك؟ فإن لم تُجِبْ حواراً، أجابك اعتباراً"^(٣).

وأياً تكن وسائل البيان أو الخطاب^(٤) التي أشرنا إليها، وأعترف بها أهل البلاغة والأدب واللغة وغيرهم فإن وسيلة الكلمة منطوقة أم مكتوبة هي التي تهتمُّ بها هذه الدراسة؛ وإنَّ الخطاب الإعلامي - مجال هذه الدراسة - نراه - في الأغلب - يُعبَّرُ عن مضمونه بهذه الكلمة المؤتلفة مع غيرها جملاً ودلالاتٍ ليصل بها إلى المرسل إليه الذي لا نعدُّ أثره فيه، وذلك من خلال حرص المخاطب أو المرسل على تكييف خطابه - أو إن شئت فقل: رسالته الإعلامية - وقدرة مخاطبه وحاله؛ لذا فإن الخطاب الإعلامي وفق هذا المفهوم مؤثِّرٌ ومتأثِّرٌ في آن واحدٍ.

(١) يُنظر مثلاً: الشوكاني، محمد بن علي. (ت. ١٢٥٠هـ). إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر. ص ١٩٩.

(٢) يُنظر مثلاً: الأمدي، سيف الدين. (١٣٣٢هـ = ١٩١٤م). الإحكام في أصول الأحكام. ج/٢. مطبعة المعارف. ص ٩٤+ الغزالي، أبو حامد محمد. (١٣٢٤هـ). المستصفى من علم الأصول. وبهوامشه فواتح الرحموت لعبد الله محمد بن نظام الدين الأنصاري بشرح مسلم الثبوت لمحَب الله بن عبد الشكور. ج ١. ص ٢. المطبعة الأميرية. بولاق. ص ١٩١.

(٣) يُنظر: البيان والتبيين. ج ١/ ص ٨١.

(٤) أو إن شئت فقل: بلغة بعض المعاصرين ولاسيما الإعلاميين. وسائل الاتصال.

متطلبات الخطاب الإعلامي

إذا كان الخطاب يكشف عن مُنتجِه فلا بُدَّ له أيضاً أن يتناسبَ وعقلية المستقبل ومستواه؛ لذا فهو يتطلَّب من المنتج أن يُراعي مجموعة من الأمور حتى تقع رسالته الإعلامية الموقَّع الذي يريده لها، وأهمُّها:

* - التَّعرُّف على خصائص مخاطبه الفكرية والاجتماعية والسياسية واحتياجاته لمراعاتها في توجيهه وتوعيته، وفي هذا المجال يتوجَّب على المنتج أو المُنشي أن يُراعي في خطابه قُدرة مُستقبله العقليَّة، وطاقتَه الثقافيَّة، وظروفه الاجتماعيَّة، وما إلى ذلك من أمورٍ كاشفَة هادِيَّة.

وهذه لوازِمٌ ضروريَّة نراها كفيَّة بأن نُقرِّب المُنتج الإعلاميَّ من مُستقبله، وتهيئَ له ولرسالته الإعلاميَّة منازلَ القبولِ عنده؛ الأمرُ الذي عابَّاه عند أساتذتنا، حيث كانوا قبلَ شَرْحهم للنَّصِّ الأدبيِّ شعراً أو نثراً، وتحليلهم لمعانيه يتحدَّثون لنا عمَّا يُسمونه "جوَّ النَّصِّ"، ويشملُ التعريفَ بالكاتبِ وعصره، والكشفَ عن مناسبة النَّصِّ أو مُلابساتِ قوله؛ وذلك لِخَلْقِ الجَوِّ المناسبِ لنا للتَّعرُّف على كلِّ ما يحيطُ بالكاتبِ ونصِّه من أحوالٍ أو سياقاتٍ.

وهو الأمرُ الذي نصَّ على جوانبٍ منه علماءنا السابقون أيضاً، إذ تحدَّثوا عن فوائِد "أسباب النزول" في الكشف والتوضيح؛ جاء عن الواحدي أنه: "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصَّتها، وبيان نزولها، وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريقٌ قويٌّ في فهم معاني القرآن، قال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإنَّ العِلْمَ بالسبب يورثُ العِلْمَ بالمُسبَّب"^(١)، وذكر السيوطي أنَّ لمعرفة أسباب النزول "فوائد: منها معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم به عند مَنْ يرى أنَّ العِبْرَةَ بخصوص السبب، ومنها أن اللفظ قد يكون عامًّا ويقوم الدليل على تخصيصه...، ومنها الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال"^(٢).

* - اختيار الألفاظ المناسبة، والجمل السليمة المترابطة التي تراعي حصيلته اللغوية، ودعم الأسلوب بوسائل الإيضاح الشارحة الكاشفة التي تتناسبُ ومستوى المُتلقي كالتَّصوُّص الدينيَّة أو الأدبيَّة أو الحكم والأمثال وغير ذلك.

وبصفة عامَّة فإنَّ صياغة الخطاب الإعلاميَّ خاصَّة تتطلَّب من المنتج لغة واضحة بعيدة عن النادر والغريب والحوشي والمُستكْرَه من الألفاظ أو التراكيب، وينبغي أن تُشكِّلَ لغته القاسمَ المُشترك الذي يجتمع عليه جمهورُ مستقبله؛ فهي المعرَّض الذي يعرَّضُ بها بضاعته.

(١) السيوطي، جلال الدين. (١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م). الإتيان في علوم القرآن. ويليهِ كتاب إعجاز القرآن للقاضي الباقلاني. ط ١. ج. ١. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. ص ٤١.

(٢) ينظر السابق. ج ١. ص ٤٠-٤١.

وفي هذا المجال وجدنا ابن قتيبة يَحْتُ الكُتَابَ على عدم التَّقْعِيرِ والتَّقْعِيبِ^(١) في كلامهم، وأن يُنْزِلُوا أَلْفَاظَهُمْ في كُتُبِهِمْ فيجعلوها على قَدْرِ الكَاتِبِ والمَكْتُوبِ إليه، وألَّا يُعْطُوا "خَسِيسَ النَّاسِ رَفِيعَ الكَلَامِ، وَلَا رَفِيعَ النَّاسِ وَضِيعَ الكَلَامِ"^(٢).

ووجدنا عبد الرحمن الهمداني - وهو يُوجِّه الكُتَابَ في عصره - ينتقدُ اتجاهاتٍ بعضهم في عدم الاستواء في خطابهم، وذلك بعدم ملاءمة عناصره لمتطلباته من أَلْفَاظِ اللُّغَةِ، فيقول: "وَوَجَدْتُ مِنَ المَتَأَخِّرِينَ في الأَلَةِ قوماً أخطأهم الاتساعُ في الكَلَامِ فَهُمُ مُتَعَلِّقُونَ في مَخَاطِبَاتِهِمْ وكتبهم بالألفاظ الغريبة والحرف الشاذ؛ لِيَتَمَيَّزُوا بِذَلِكَ مِنَ العَامَةِ، ويرتفعوا عند الأعياء عن طَبَقَةِ الحشوء...، وألْفَيْتُ آخِرِينَ قد توجَّهوا بِبعضِ التَّوجُّهِ وَعَلَوْا عن هذه الطَّبَقَةِ، غيرَ أَنَّهُمْ يَمْرُجُونَ أَلْفَاظاً يَسِيرَةً قد حفظوها من أَلْفَاظِ كُتَابِ الرِّسَالِ بِأَلْفَاظٍ كَثِيرَةٍ سَخِيفَةٍ مِنَ أَلْفَاظِ العَامَةِ استعانته بها، وضرورةً إليها؛ لَخَفَةِ بِضَاعَتِهِمْ، ولا يستطيعون تَغْيِيرَ مَعْنَى بغير لفظه لِضَيْقِ وَسُعْيِهِمْ؛ فَالتَّكَلُّفُ وَالاختلالُ ظاهران في كُتُبِهِمْ ومَحاورَاتِهِمْ، إذ جمعوا بين الدُّرَّةِ والبَعْرَةِ في نظامهم"^(٣).

وما كان لنقاد العربية، وبلغائها؛ ولنا أن ننصَّ على ضرورة اختيار اللفظ المأنوس، ووضعها في تراكيب سليمة واضحة إلا لأنَّ اللُّغَةَ هي حُلَّةُ المعاني، وإنَّ التَّمَكَّنَ من جعلها قادرةً على التعبير عن المعاني أو المضامين التي تَحْمِلُهَا بِجَلَاءٍ وَيُسْرٍ لهُوَ الهَدَفُ الأسمى الذي يَسْعَى المنتج أو المخاطب إلى الوصول إليه.

وفي هذا المعنى سبق لابن طباطبغا أن قال في حديثه عن خصائص خطاب الشعر الجيد: "وللمعاني أَلْفَاظٌ تُشَاكِلُهَا؛ فَتَحْسُنُ فِيهَا، وَتَقْبُحُ في غيرها، فهي لها كالجارية الحسنة التي تزدادُ حُسْنًا في بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حَسَنٍ قد شينَ بِمَعْرُضِهِ الذي أُبرِزَ فيه، وكم معرض حَسَنٍ قد ابْتُذِلَ على معنى قبيح أُلْبِسَهُ"^(٤).

والشعرُ - كما هو معروف - رسالة العربي الإعلامية الأولى؛ فقد سجَّلَ أيامَ العربِ ومآثرها، بل هو - بلسان ابن عباس رضي الله عنهما: - "ديوانُ العرب"^(٥).

*- الحرص على أن تتساقط الألفاظ وتراكيبها في جُمْلٍ مع ما تتطلبه مضامين الخطاب التي يَهْدَفُ المُنْتِجُ أو المَخاطِبُ إلى تَوْصِيلِهَا، وفي هذا المقام نَبَّهَ عبد الرحمن الهمداني إلى أن

- (١) التَّقْعِيرُ والتَّقْعِيبُ التعمق والإغراب في استخراج معاني الكلام.
- (٢) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله. (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م). أدب الكاتب. ط ١. شرحه وكتب هوامشه وقدم له: أ. علي فاعور. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ص ١٨ - ٢٠.
- (٣) الهمداني. عبد الرحمن بن عيسى. (١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م): كتاب الألفاظ الكتابية. منشورات دار الهدى للطباعة والنشر. توزيع المكتب الإسلامي. ص ح- ط.
- (٤) ابن طباطبغا، محمد أحمد. (١٩٨٠م). عيار الشعر. دراسة وتحقيق: د. محمد زغلول سلام. الناشر: منشأة المعارف الإسكندرية. ص ٢١ - ٢٢.
- (٥) ابن رشيقي القيرواني، أبو علي الحسن. (١٤٠١هـ = ١٩٨١م ت). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ط ٥. ج ١. حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجبل. بيروت. ص ٣٠.

من محامد التأليف والنظم أن "تزين معانيه ألفاظه، وألفاظه زائنت المعاني، فإذا كانت الألفاظ مشاكلة للمعاني في حسنها، والمعاني موافقة للألفاظ في جمالها، وانضاف إلى ذلك قوة من الصواب، وصفاء من الطبع، ومادة من الأدب، وعلم بطرق البلاغات، ومعرفة برسوم الرسائل والمكتابات كان الكمال، وبالله التوفيق"^(١).

*- وضوح عناصر المضمون، وتسلسل عناصر أفكاره؛ الأمر الذي يتطلب من المصدر المخاطب وعياً تاماً بمحتويات خطابه؛ فإذا كان المضمون ناضجاً في ذهن صاحبه انطلق لسائته. بما يمتلك دماغه من مفردات وتراكيب متوائمة ومتطلبات أدمغة مستقبلية- في التعبير عنه بسهولة.

بلاغة الخطاب الإعلامي:

وإذا كان لنا أن نحدد الكلام البليغ وهو قوام أي أسلوب راق، ومنه نص الرسالة الإعلامية أو الخطاب الإعلامي- بحسب مصطلح هذه الدراسة- فإننا نرى ضرورة أن يتوافر له شرطان رئيسان هما:

- فصاحة اللفظ والتركييب والمعنى^(٢).
- ملاءمة الكلام لمقتضى الحال.

وإذا ما نجح المنتج في اختيار عناصر خطابه: (اللفظ والتركييب والمعنى)، وملاءمتها لمقتضى الحال، وأمكنه التأثير في المخاطب فقد أوصل رسالته، وكل من أوصل حاجته أو رسالته وفق أنظمة اللغة السليمة- كما كان يقول القدماء: - فقد أبلغ.

وعلى هذا فإن بلاغة الخطاب الإعلامي تكمن في تمكن المنتج في خطابه من توفير متطلبات المتلقي؛ لجذبه إليه، واستمرار تواصله معه؛ الأمر الذي يجعلنا ننص على أن كلاً منهما يؤثر في الآخر: فالمنتج أو المنشئ أو المخاطب في حرصه في خطابه على جذب مخاطبه أو مستقبله لا بد- كما هو مفترض - أن يتقرب إليه بعناصر اللفظ والتركييب والصورة والمثل التي يتطلّبها مستواه يُمكّنه فهمها؛ لذا فإنّه في هذه الحالة- فيما أفهم- يتقمص أو يتخيل عقلية صاحبه التي - لا محالة- ستؤثر فيه، فإذا ما نجح في ذلك فسيصل إلى غرضه في الإقناع والإمتاع، وهو الجانب التأثيري الذي يسعى إلى بلوغه.

وقد أشار غير عالم إلى هذه العلاقة التأثيرية لقطبي الرّحى: المخاطب والمخاطب؛ فعالم اللغة الأمريكي بلومفيلد "Leonard Bloomfield" رأيناه يربط تحديد معنى الكلمة أو الصيغة

(١) السابق: ص ك.

(٢) وكما هو معروف فقد يكون الإبلاغ بغير اللفظ الفصيح. والتركييب السليم؛ لذا كان احترازنا - في هذا المقام- باشتراك فصاحة اللفظ والتركييب والمعنى التي نعني بها: الموافقة لأنظمة اللغة الصوتية والبنوية والتركييبية. وعدم الخروج على الدلالات الواضحة للألفاظ والتركييب.

اللغوية بالموقف أو الحالة "Situation" التي تصاحب المتكلم حين نطقها، واستجابة "Response" المُستمع أو المُستقبل؛ فحالة المتحدث واستجابة المستمع- كما يرى بلومفيلد - تتعاضدان في إنتاج الكلام أو الخطاب^(١).

ووجدنا بينفينست envenist يُعرّف مصطلح الخطاب بأنه كل نطق متكلماً وسامعاً، ويفترض في المتكلم نية التأثير على الآخر بشكل ما^(٢).

وبحسب فهمنا في هذا السياق فإننا نخلص مما سبق إلى أنّ البلاغة الإعلامية- عند القدماء والمحدثين- هي فنّ إيصال محتوى الخطاب دون مخالفة للقواعد أو نظامية اللغة؛ فهي قائمة على النجاح في الإبلاغ الذي من أهم شروطه الإبانة بما تحتاجه من متطلبات سبق الكشف عنها.

وقد وجدنا القرآن الكريم يلفت إلى أهمية هذا العنصر للإبلاغ، حيث ورد وصف كلمة "البلاغ" بوصفها "المبين" سبع مرات^(٣)، وجاء مجرداً منه أربع مرات^(٤).

ووجدنا الجاحظ يوضح ذلك حين يُعرّف البيان- أو إن شئت فقل: "الخطاب" بمصطلح هذه الدراسة- بأنه "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كأنما ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"^(٥).

وإذا كان البيان بأنواعه الخمسة- وهي: اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال التي يُسميها نصبة- التي حددها الجاحظ وسمّاها "أشياء" فلا أظنه يخرج عن المؤلف الذي اعتاد عليه الناس- بصفة عامة- في مجالات الإبانة أو الإبلاغ؛ فهو حين أشار إلى أن تبليغ "الإفهام"، و"الإيضاح" عن المعنى "إنما" هو "البيان"، ويكون "بأي شيء" لا نراه يقصد الخروج عن المؤلف من قواعد اللغة أو أنظمتها.

وأياً كان إيمان الجاحظ أيضاً بأن لكل مقام مقالاً، وأن الناس متفاوتون في مستويات فهمهم وإفهامهم؛ وأن أصحاب الإبلاغ أو البيان مختلفون في طرائقهم التعبيرية، فلا نظنه - وهو أديب العربية المتنوّس، والبلاغي الحاذق - في حديثه عن الإبلاغ أو الخطاب يحيد عن طريق العربية الفصيحة الذي اعتاده في الإفصاح عن فكره وعلمه وأدبه فيها، وهو الطريق الذي يُعدّ مثلاً ممتازاً ندعو أصحاب الخطاب أو البيان إلى الاطلاع عليه؛ للاستفادة منه.

(1) Bloomfield L., Language, George Allen & Unwin LTD - London, Twelfth Impression p. 139.

(٢) أيستوبت، أنتوني. (١٩٨٥م). "الخطاب الشعري بوصفه أيديولوجياً". مجلة فصول. ٥(٤). ترجمة حسن البنا. ص ١٠٣.

(٣) يُنظر الآيات: (٩٢) المائدة+ (٣٥ و ٨٢) النحل+ (٥٤) النور+ (١٨) العنكبوت+ (١٧) يس+ (١٢) التغابن.

(٤) يُنظر الآيات: (٢٠) آل عمران+ (٩٩) المائدة+ (٤٠) الرعد+ (٤٨) الشورى.

(٥) البيان والتبيين: ج ١/ ص ٧٦.

إنَّ ما يدعُماً ما نذهبُ إليه: هذا النصُّ الذي يُفصِّحُ فيه الجاحظُ عن توجُّبه لِنصِّ العتَّابي الذي أشارَ فيه إلى أنَّ "كلَّ مَنْ أفهمَكَ حاجتَهُ من غيرِ إعادةٍ ولا حُبْسَةٍ ولا استعانةٍ فهو بليغٌ"، حيثُ أشارَ إلى أنه لا يَعْنِي "أَنَّ كلَّ مَنْ أفهمنا مِنْ معاشِرِ المؤلِّدينِ والبلديينِ قَصْدَهُ ومعناه بالكلامِ الملحونِ، والمعدولِ عن جهتهِ، والمصروفِ عن حقِّه، أنه محكومٌ له بالبلاغةِ كيفَ كان"، وأنَّ "مَنْ زعمَ أنَّ البلاغةَ أن يكونَ السامعُ يفهمُ معنى القائلِ، جعلَ الفصاحةَ واللكنةَ؛ والخطأَ والصوابَ؛ والإغلاقَ والإبانةَ؛ والملحونَ والمُعربَ، كلُّهُ سِوَاءً، وكلُّهُ بَيَانًا، وكيفَ يكونُ ذلكَ كلُّهُ بياناً...، وإنما عَنَى العتَّابي إفهامَكَ العَرَبَ حاجتَكَ على مجاري كلامِ العَرَبِ الفُصحاءِ"^(١).

وعَلَّقَ أبو هلالِ العسكري (ت. ٣٩٥هـ) على نصِّ العتَّابي بمضمونِ الجاحظِ، فقال: "وإنما عَنَى: إنَّ أفهمَكَ حاجتَهُ بالألفاظِ الحَسَنَةِ، والعبارةِ النَّيِّرَةِ فهو بليغٌ، ولو حَمَلْنَا هذا الكلامَ على ظاهره لَلزَمَ أن يكونَ الألكُنُ بليغاً؛ لأنَّهُ يُفهمنا حاجتَهُ، بل وَيَلزَمُ أن يكونَ كلُّ الناسِ بلغاءً حتى الأطفالِ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ لا يَعَدَمُ أن يَدُلَّ على غَرَضِهِ بعُجْمَتِهِ أو لَكْنَتِهِ أو إيمائِهِ أو إشارتِهِ، بل لَزِمَ أن يكونَ السُّتُورُ بليغاً؛ لأنَّا نَسْتدلُّ بضغائِهِ على كثيرٍ من إرادتِهِ، وهذا ظاهرُ الإحالةِ"^(٢).

وقد نحا المحدثون هذا المنحى فوجدنا ريمون طحان وهو يُعرِّفُ الأسلوبَ لا يخرجُ عن الأسسِ العامةِ للخطابِ الناجحِ التي جاءت عن الأسلافِ، يقول: "اللغةُ بناءٌ مفروضٌ على الأديبِ من الخارجِ، والأسلوبُ مجموعةٌ من الإمكانياتِ تحقِّقها اللغةُ، ويستغلُّ أكبرُ قدرٍ ممكنٍ منها الكاتبُ الناجحُ، أو صانعُ الجمالِ الماهرِ الذي لا يهملُ تاديةَ المعنى وحسب، بل يبغِي إيصالَ المعنى بأوضحِ السُّبُلِ وأنجحها وأجملها، وإذا لم يتحقق هذا الأمرُ قَسيلَ الكاتبِ وأنعدمَ معه الأسلوبُ"^(٣).

وأياً يكن الأمرُ فإننا نخلص - مما سبق - إلى أنَّ الرسالةَ الإعلاميةَ يتطلَّبُ نجاحُها في الوصولِ إلى الفئةِ المستهدفةِ، وتحقيقِ أهدافها فيها مقدرةً متميزةً من منتجها على استكشافِ خصائصِ المُستقبِلِ وحاجتِهِ، وانتقاءِ ما يلائمُهُ من أساليبِ الخطابِ ووسيلةِ إيصالِهِ ولاسيما اللغةَ السليمةَ الفصيحةَ، والاستفادةَ من المقامِ في إذاعةِ المضمونِ أو إخراجهِ إلى المَلأ، فكلُّ مقامٍ مقالٌ، كما قال شعراؤنا وعلماؤنا من قبل.

قال الشاعرُ الجاهليُّ زهيرُ بنُ أبي سلمى: (الوافر)

وَلَوْ لَا أنْ يَنالَ أبا طَريفٍ عَدَابُ مِنْ مَليكَ أو نَكالُ
لَمَّا أَسْمَعْتُكُمْ قَدْعاً وَلَكِنْ لِكُلِّ مَقامِ ذِي عانِ مَقالُ

(١) المصدر السابق: ج ١/ ص ١٦١-١٦٢.
(٢) العسكري، أبو هلال (١٤٠٤هـ = ١٩٨١م). الصناعتين: الكتابة والشعر. ط ١. تحقيق د. مفيد قميحة. دار الكتب العلمية. بيروت. ص ٢٠.
(٣) الألسنية العربية. ج ٢. ص ١١٦-١١٧.

وقال الحطّيبُ: (المتقارب)

تَحَنَّنَ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيكَ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا

شواهدُ أدبية من الخطابِ الثَّرَائِيّ

يقعُ المُطَّلَعُ على تراثنا الأدبيّ على مواقفَ طريفةٍ تُنَوِّهُ بنجاحِ المُنْتَجِ أو فشله في توصيلِ خطابِهِ أو رسالته إلى المتلقي، وإنَّ من الشواهدِ الدالة على النَّجَاحِ في تَحَسُّسِ مدارِكِ المخاطبِ ومطالبِهِ ما جاء عن بشار بن بردٍ في جاريته رباب، حيثُ قال فيها: (الهِزَج)

ربابة ربّة البيتِ تصبُ الخَلَّ في الزيتِ
لها عَشْرُ دجاجاتٍ وديكٌ حَسَنُ الصَّوْتِ

ولمّا رأى الناقدُ مغايرةَ هذا الشعرِ لأسلوبِ بشارِ المَتِينِ الجَزَلِ قال: "إنَّكَ لتجيءُ بالشيءِ الهجينِ المُتَّفَاوِتِ... بَيْنَمَا تَقُولُ شِعْرًا تُثِيرُ بِهِ النَّقْعَ، وَتَحْلَعُ بِهِ الْقُلُوبَ، مِثْلَ قَوْلِكَ مِنَ الطَّوِيلِ:

إذا ما عَضِبْنَا عَضِبَةً مُضْرِيَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمَطِرُ الدِّمَا^(١)
إذا ما أَعْرَنَّا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ دُرَى مَبْرُ صُلَى عَلَيْنَا وَسَلَمًا"

فردَّ بشارٌ قائلًا: "لكلِّ شيءٍ وجهٌ وموضعٌ"؛ فهذا "القولُ... جدُّ، وذاك" قلته في ربابة جاريته، وأنا لا أكلُّ البيضَ من السَّوْقِ، وربابة هذه لها عشرُ دجاجاتٍ وديكٌ؛ فهي تجمعُ البيضَ لي وتحفظُه لي عندها، فهذا قلبي عندها أحسنُ من:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

عندك"^(٢)

ويعرِّضُ ما جاء عن الشاعرِ والناقدِ في الميزانِ النقديّ نرى أنَّ هذا الناقدَ قد فشلَ في الارتقاء إلى بلاغةِ الشاعرِ الألمعيّ بشارِ، وإدراكِ مقدرتها في تلبيةِ متطلباتِ المخاطبِ!، ولو كان غيرَ ذلك لما وجدناه يُعَقِّبُ على ردِّ بشارٍ قائلًا: "وهذا عُدْرٌ غيرٌ واضحٍ، وهو باستئنافِ ذنبٍ أولى، وقد كان يسعُه أن يقولَ ما تفهمُه الأمة، ولا يسقطُ هذا السقوطُ، وما الذي أوجَّهَ إلى أن يُدَوِّنَهُ وَيُرَوِّى عنه؟، وأيُّ حجةٍ له في البيتينِ الأوَّلينِ لولا الزَّلَلُ والنَّقْصُ المُستَوَّلِيان على البشْر"^(٣)

إنَّ الناقدَ - كما هو واضح - يريدُ لخطابِ الشاعرِ بشارِ أن يكونَ على نمطٍ واحدٍ في المَبْنَى والمعنى بغضِّ النظر عن مستوى المستقبلِ أو اختلافِ المقامِ أو المضمونِ، وهو النَّمَطُ الذي

(١) هناك رواية أخرى تقول: "هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما" و"هتكنا سماء الله أو قطرت دما".

(٢) الأغاني: ج ٣/ص ١٥٦.

(٣) بن حمدون. محمد بن الحسن. (ت. ٥٦٢هـ). التذكرة الحمدونية. (ينظر الموسوعة الشعرية).

يناسب مستوى الأديب والناقد وغيرهم من أرباب الكلام، وهو أمرٌ غيرٌ معقولٍ؛ فالناسُ- كما خَلَقَهُمُ اللهُ: (سبحانه وتعالى)- متفاوتون، ولكي يصلَ المخاطبُ إليهم لا بدَّ له أن يُخاطِبَهُمْ على قَدْرِ عُقُولِهِمْ.

ومن مراعاةٍ بشارٍ للمقام وفشلِ الناقدِ في إدراكِ كُنْهِ إبداعِ الأديبِ ما جاءَ عن الأصمعيِّ حيثُ يَرُوِي أنَّ أبا عمْرُو بنَ العلاءِ وخلفَ الأحمَرَ قد سألَا بَشَّاراً عن القصيدة التي أحدثها في سلْم بن قتيبة، فأجابهم: "هي التي بلغنكم، قالوا: بلغنا أنك أكثرت من الغريب، قال: نعم، بلغني أن سلْم بن قتيبة يتباصرُ بالغريب؛ فأحببتُ أن أوردَ عليه ما لا يعرف، قالوا: فأشيدناها يا أبا معاذ، فأشدهما":

بَغْرَا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

حتى فرغ منها، فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذٍ مكان: (إنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ)

بَغْرَا فَالْجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ

كان أحسن.

فقال بشار: إِنَّمَا بَنَيْتُهَا أَعْرَابِيَّةً وَحَشِيَّةً، فقلت:

إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

كما تقول الأعرابُ البَدَوِيُّونَ، ولو قلتُ: (بَغْرَا فَالْجَاحُ) كان هذا من كلام المؤدِّين، ولا يُشْبِهُ ذَاكَ الْكَلَامَ، ولا يدخلُ في معنى القصيدة.

قال: فقامَ خلفٌ فَقَبَلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ!"^(١).

ومن ذلك أيضاً ما يرويه الرواة أن جَرِيرَ بنَ عطية الخَطْفِيَّ دخلَ "على عبد الملك بن مروان فابتدأ يُنشدُه:

أ تَصْنُو أُمُّ فُوَادِكَ غَيْرُ صَاحٍ

فقال له عبد الملك: بل فوادك يابنُ الفاعلة؛ كأنه استنقلَ هذه الموجهة، وإلا فقد علِمَ أنَّ الشاعرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ"^(٢).

ودخل الشاعرُ ذو الرُّمَّةِ على عبد الملك فابتدأ منشداً:

- (١) دلائل الإعجاز: ص ١٨٠-١٨١. ويُنظر: القزويني، جلال الدين. (١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م). الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبيوع). ط١. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ص ٢٥.
- (٢) يُنظر في كتاب العمدة ج ١/ ص ٢٢٢. ويُنظر الرواية في: العقد الفريد ج ١/ ص ٣٣٠+ سر الفصاحة. ص ١٨٤+ القرطاجي، أبو الحسن حازم. (١٩٨١م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. ط٢. تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. ص ١٥٠. ويُنظر شواهد أخرى على مغايرة فهم المخاطب لما يريد أن يقول المخاطبُ المُنشئُ في: العمدة "باب المبدأ والخروج والنهاية". ص ٢١٧-٢٤١. وسر الفصاحة. ص ١٨٣-١٨٤. ومنهاج البلغاء. ص ١٤٨-١٥٠.

"ما بال عينك منها الماء ينسكب"

وكان بعين عبد الملك بن مروان ريشة؛ وهي تدمع أبداً؛ فتوهم أنه خاطبه أو عرض به، فقال: وما سؤالك عن هذا يا جاهل؟!؛ فمقتته وأمر بإخراجه^(١).

أقول:

نخلص مما سبق إلى أن براعة المنتج تتجلى في المفاعلة بين عناصر الشكل والمضمون والمقام^(٢) "context of situation" في خطابه لغيره، وإن إحالة مضمون الخطاب بأنواعه المختلفة إلى واقع حقيقي يهضمه المستقبل لينتج لغيره أو ليسير في ركابه تتطأب - في المقام الأول - النجاح في الوصول إلى مستوى المتلقي واحتياجاته؛ فلا يطيل عند الألباء ودوي المعرفة والاختصاص، ولا يوجز عند من ليس لهم دراية أو طول عشرة في مدار المضمون؛ الأمر الذي يسهم - بلا ريب - في تسريع إيصاله إلى المتلقي، ويوقعه فيه الموقع الذي أريد له، وقد أشار بلغاؤنا وعلماؤنا الأوانل إلى ذلك، فقال ابن قتيبة: "ولو كان الإيجاز محموداً في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرّر تارة للإفهام".

أدوات صانع الخطاب:

قديماً قال نقادنا العرب: "الشعر صناعة وثقافة"^(٣)، ووصفوا الشاعر بالنساج الحاذق، والنقاش الرفيق، وناظم الجوهر^(٤)، وأقول: الخطاب - أيًا كان نوعه - صناعة وثقافة أيضاً، ولا بد للصانع أيًا كانت صنعة - كما هو معروف - من أدوات يتقنها حتى يتمكن من إتقان صناعته والمتمرس الناجح فيها.

وإن من أهم أدوات صناعة الخطاب الإعلامي إضافة إلى ما ينبغي له التميز به من ذكاء وسرعة بديهية أو فطنة ونباهة وفراصة، والثخالي بالأخلاق الحميدة:

- (١) العمدة: ج ١/ص ٢٢٢. ويُنظر الشاهد في: سير الفصاحة: ١٨٣.
- (٢) ويسمى أيضاً: سياق الموقف أو سياق الحال أو مسرح الكلام.
- (٣) يُنظر على سبيل المثال: الجمحي، محمد بن سلام. (د.ت). طبقات الشعراء. إعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت. ص ٣ + ابن جعفر، أبو الفرج قدامة. (١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م). نقد الشعر. ط ١. تحقيق وتعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي. الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة. ص ٦٤ + الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الكندي. (١٩٣٨ م). الحيوان. ج ١. الناشر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة. ص ٤٠ + ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (ت. ٤٤٩ هـ). (١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م). مقدمة ابن خلدون. ط ٦. دار القلم. بيروت. لبنان. ص ٥٧١ + ٥٧٤ + ٥٧٧ الخ.
- (٤) يُنظر على سبيل المثال: عيار الشعر. ص ١٩ - ٢٠.

التضلع في اللغة وأساليب القول فيها

حيثُ تُشكّلُ اللغةُ زاداً مُهمّاً للإعلامي؛ والزادُ اللغويُّ هو هذا المحصولُ من أنظمة اللغة الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية الذي يكتسبه الإعلاميُّ أو الأديبُ أو أيُّ إنسانٍ من خلال مطالعته وممارساته وتجاربه اليومية في مجالات الحياة منذ مولده حتى يومه الذي يحياه؛ فالإنسانُ ما دامَ يحيا الحياةَ ويشاركُ فيها يكتسبُ المعنى والتجربة واللفظَ الدالَّ على تنمية مجالات اكتسابه، وكلّما كان محصوله من اللغةِ واسعاً استطاعَ ولوجَ الموضوعاتِ المتنوعة، وتمكّنَ من تنويع أسلوبِ خطابه وملاءمته لمستوى المتلقّي.

وفي مجال الزاد اللغويّ نرى أنه يتوجّبُ على الإعلاميِّ فيه المحافظةُ على سلامة تطبيق القاعدة، وقد كانت العربُ في العصور القديمة تُنْفِرُ من اللحن؛ الأمرُ الذي ما نزال نلمسه في كثير من المؤتمرات أو الندوات أو الخطب الدينية وخطب الرؤساء وكلمات أهل السياسة، أو مرافعات المحاكم، أو اللقاءات العامة بصفة عامة؛ حيثُ يُفصِحُ كثيرٌ من الناس من تَبَرُّمهم من الأغلط اللغوية التي يقعُ فيها بعضُ المتحدثين أو المُلقين؛ لذا فإنك تَرانا في مقاماتٍ عدّةٍ ننصُّ على ضرورة امتلاك الإعلاميِّ للغة السليمة، وناصيةً بيّنها المُفصِح.

وفي هذا المقام نرى أنه يتوجّبُ على كليات الإعلام والسياسة والشريعة وأصول الدين تعميقُ ثقافة خريجها في علوم اللغة العربية من أدبٍ ونحوٍ وبلاغةٍ ونقدٍ وعروض... إلخ، وأن تُسندَ مهمةَ تدريسها إلى أساتذة أكفيا يُتقنونُ أصولَ حِرْفَةِ شهادتهم؛ حيثُ سَتُشكّلُ هذه اللغةُ ذخيرةً ألسنتهم وأقلامهم عندما يُباشرونَ التحدّثَ والكتابةَ في ميادين عملهم.

وفي مجال كليات الإعلام والسياسة ومعاهدها العالية ينبغي ربطُ الطلبة بمقرراتٍ دينيةٍ كال تفسير والفلسفة الإسلامية، والحديث النبوي الشريف، وإتقان مخارج الأصوات وصفاتها من خلال قراءة القرآن الكريم بل تجويده وحفظ آياتٍ وسورٍ منه.

وقد وجدنا كثيراً من كبار الشعراء والكُتّاب الأوائل يلفتونَ إلى محفوظهم من القرآن والشعر ونصوص الخطب والأمثال والأقوال المأثورة؛ وكيف كان لهم منهلاً يلجأون إليه عند الحاجة، وقد نصَّ حذائق علماء العربية على أنه لا بدّ للكاتب "من النظر في جمل الفقه، ومعرفة أصوله: من حديث رسول الله ﷺ وصحابته"^(١).

وما كان هذا الاتجاه الرابط بين اللغة والإعلام إلا لأننا نؤمنُ إيماناً عميقاً بأدوار وسائل الإعلام المتنوعة في خدمة اللغة، وإذاعة اللفظ العربي الفصيح وتراكيبه السليمة، ونحن نرى أن دورَ الإعلاميين لا يقتصرُ على النشر أو الانتصار لهذا المصطلح أو ذاك؛ فالإعلاميُّ الضلّيعُ في لغته والخبيرُ باللغة التي يقبلها معاصروه لقادرٌ - بلا شكٍ - على الابتكار أو الوقوع بحسب اللغوي على البدائل العربية التي يشعرُ بإمكان قبول الجمهور العربي لها؛ الأمر الذي يتجلى إدراكه في مواطن الترجمة المباشرة، أو ما يُسمّى بالترجمة الفورية.

(١) أدب الكاتب، ص ١٥.

وإذا كنا في هذا المقام قد سجّلنا للإعلامي الحاذق في لغته دوراً إيجابياً في مدها بمعان جديدة وألفاظٍ مبنيةٍ على أسسٍ معياريةٍ سليمةٍ فإنّ هناك في المقابل هذا الإعلامي غير المتمكن من لغته، أو المُستَهْزِئَ بها، أو المُهاجِمَ لها؛ الأمر الذي يجعل اللغة على لسانه أو قلمه ضعيفةً، أو مليئةً بالأخطاء والأوضاع المخالفة لمعايير القواعد السليمة.

- إتقان إحدى اللغات الأجنبية:

الأمر الذي يُمكنه من الاطلاع على ثقافة أصحاب اللغة التي يجيدها، ويُعيّنه على اختيار الخطاب المناسب.

- إجادة مهارات الحاسوب والاتصالات الحديثة:

حتى يتمكن من الاستفادة من التقنيات الحديثة في التواصل والإحاطة بكلّ جديد في مجال مهنته.

- وجوب التدريب المتكرر في مجالات الحوار والكتابة بالفصحى في ميادين الحياة المتنوعة:

وذلك من خلال العناية بفنّ الإلقاء والحوار؛ وفنّ التحرير الصحفي والإذاعي؛ ولغة الإعلان؛ فكلّ فنّ أو عملٍ بصفةٍ عامّةٍ خصائصه أو قواعده التي ينبغي لأصحابه هضمها وامتصاصها لتصير جزءاً من مكونات كيانه، أو إن شئت فقل بلغة القدماء: لتصير فطرةً أو ملكةً أو سليفةً تُمكنه من التمرّس والإجادة والافتنان في تطبيقها دون عناءٍ أو مكابدةٍ، ولا يكون ذلك إلا بالتدريب المتكرّر الذي يشرفُ عليه أساتذته وخبراءُ مُفْتَتُونَ مُتَمَرِّسون.

- إمام جيد ومتواصل بأحوال مجتمعه:

ولاسيّما الخاصّة بالموضوعات والبرامج التي تدخل في مجال عمله، يقول ابن قتيبة: "ولا بدّ له - مع ذلك - من دراسة أخبار الناس، وتُحْفَظُ عيون الحديث؛ ليدخلها في تضاعيف سطورهِ متمثلاً بها إذا كُتِبَ، ويصلّ بها كلامه إذا حاور"^(١).

ومتى تمكّن الإعلامي من التعرف على أحوال مجتمعه فسيكون قادراً على إدراك متطلبات صياغة خطابه ليكون مطابقاً لمقتضى الحال، وموافقاً للغرض الذي أنشئ لأجله.

- ضرورة التثقيف الثقافي الموسوعي غير المحدودة بحدود الوطن أو النحّص:

ونرى أنه ينبغي للإعلامي - إلى جانب ثقافته المحلية أو القومية أو الدينية - التمتع بثقافة عالميةً تُمكنه من استيعاب مما يدورُ حوله في أصقاع العالم المتقاربة والمتباعدة.

(١) السابق: ص ١٦.

إنَّ امتلاكَ الإعلاميِّ لثقافةٍ موسوعيةٍ وأهميّةٍ نراه شرطاً ضرورياً، وخاصّةً في هذه الأيام التي غدا الكونُ فيها بحكم تطوُّر وسائل الاتصال التي تُمكنُ مَنْ يَلجُ في مهاراتها من أن يتصلَّ بغيره- كتابةً وحديثاً وصورةً- في أيّة بُفَعَةٍ من بقاع الوجود الإنسانيِّ في لمح البصر.

وقد وجدنا من العلماء من أشار إلى أهمية هذا الجانب في عمل الكاتب، أو إنَّ شئتَ فقل: في عمل الإعلاميِّ مجال اهتمام هذه الدراسة؛ فابن قتيبة (ت. ٢٧٦هـ) مثلاً وجدناه ينبه على أنه لا بدّ للكاتب مع الكتب أو الأبواب التي قدّمها له في كتابه "أدب الكاتب" من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين؛ حتى يعرف المثلث القائم الزاوية، والمثلث الحادّ، والمثلث المنفرج، ومساقط الأحجار، والمربّعات المختلفات، والقسيّ والمدورات، والعمودين، ويمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر؛ فإنَّ المخبرَ ليس كالمُعاین^(١).

ولفتَ إلى أنَّ العجمَ أيضاً نَبّهت إلى أهمية سعة علم الكاتب ومعارفه، وأنَّ "مَنْ لم يكنْ عالماً بإجراء المياه، وحفرَ فُرُضَ المشارب، وردّم المهاوِي، ومجاري الأيام في الزيادة والنقص...، ودقائق الحساب؛ كان ناقصاً في حال كتابته"^(٢).

الخطاب الإعلامي الفلسطيني المعاصر:

وقبل أن نقفَ عند بعض ظواهر عامة في الإعلام العربي الفلسطيني نوذُ أن نشيرَ إلى أنَّ تَفحُّصنا للشواهد الأدبية السابقة التي استعرضناها في هذه الدراسة قد يُفَعِّلنا في التمييز بين نوعين من الخطاب:

نوعٌ من الخطاب يُراعي المخاطبَ فيه المقام أو السياق، وآخَرُ يكشفُ فيه المخاطبَ عن إمكاناته القوية في التعبير، وقد لا يخلو هذا النوع أيضاً من تأثير المقام أو المخاطب كما في قول بشار: (إنَّ ذاك النَّجَاحَ في التَّكبير).

وعليه فإننا في مجال الخطاب الإعلامي نرى أنَّ نجاحه أو تميُّزه لا ينبغي أن يُقاسَ بمعايير البلاغة الرَّاقية أو الأسلوب الأدبي الرفيع، وإنَّما بمقدار فُدرة صاحبه على الوصول إلى تحقيق أهدافه منه، والتأثير في نفوس سامعيه دون مخالفة لقواعد السلامة اللغوية؛ فهو خطابٌ مَنفَعِيٌّ يَسعى إلى كسبِ المُتلقِي أو المخاطبِ لِتَبني وجهة النظر التي يروِّجُ لها، وتُحقِّقُ مصلحته، ويلجأُ دوماً إلى استثمار المعنى الهامشيِّ لمفردات اللغة وتراكيبها التي لها معانٍ رئيسة ينصرفُ الذهنُ إليها عند سماع نطقها، وأخرى هامشيّة يمكنُ الاعتمادُ عليها في التأييل أو التخريج أو التضليل.

ويمكنُ تسميته أيضاً بـ "خطاب المَنفعة" أو "الخطاب التَّفعيّ"، ويتجلى في مجالات الخطاب السياسيِّ ولاسيما إعلام الشعوب المتصارعة، ومِنْ أهمِّ خصائصه تغييرُ الحقائق، والتلوُّنُ المُتسقُ وتحقُّيقُ مآربِ السياسيِّ، فإنَّ راعي مقاماً فإنه قد يخالفُ آخَرَ، وهو ما سنتولّى الإشارةَ إلى شواهد منه في مجال الإعلام العربيِّ ولاسيما الفلسطيني فيما سيأتي من سطور هذه الدراسة.

(١) السابق: ص ١٥.

(٢) يُنظر السابق: ص ١٥.

من مظاهر الخطاب المنفّعي:

وسنعرض في هذا المقام بعضاً من مظاهر هذا الخطاب العامة والخاصة، ونعني بالعامّة ما يُشكّل ظاهرة إعلاميّة عامّة نلمسها في وسائل الإعلام بصفة عامّة والإعلام الفلسطيني أيضاً، أما الخصوصية في هذا المقام فتتمثل في مضامين الإعلام الفلسطيني وشواهد الحيّة المستنقاة من وسائل الإعلام الفلسطيني، وذلك على النحو التالي:

- التزوير الدلالي:

أو إن شئت فقل: "التزييف الدلالي"، ويتجلى اللجوء إليه في أثناء الحروب والصراعات السياسية، ويلجأ إليه أطراف الصراع لخدمة مآربهم، حيث يكثر الكذب والتدليس والثموية والدعاية المُعرضة، ويكون للغة بل التلاسن دوراً رئيساً في الصراع؛ حيث يعتمد كل فريق على تسخير إمكانات اللغة لخدمة مواقفه السياسية، وقهر خصمه، وإضعاف روحه المعنوية.

ونقصد بالتزوير الدلالي- في هذا المقام- قلب الحقائق، أو هو هذا التحريف المقصود لألفاظ من اللغة وتراكيبها عن مقامات الدلالة المألوفة لها^(١)؛ بغيّة التضليل، وخدمة مصالح اللاجئين إليه، وذلك بإطلاقها على معانٍ مُغايرة للمعاني الحقيقية الأصلية لها، بغض النظر عن صدق الدلالة على الحدّث، أو نظرة الخصم إليه، وأدواته اللفظية والتركيبية في التعبير عنه؛ فالمهم في هذا كلّهُ أن تتفق معاني هذه الألفاظ والتراكيب وأهداف مُطلقها ورؤيتهم للحدّث أو الموقف، وسنقف في هذا المقام عند بعض الشواهد الدالة عليه.

ومن ذلك ما نلمسه في الإعلاميين الفلسطيني والعربي؛ والاحتلال الإسرائيلي والمتحالف معه، ف "العملية الفدائية" وهي دأله عند الفلسطينيين والعرب على معاني البطولة والافتداء والشرف يسميها الإعلام الاحتلالي المُضاد: "عملية تخريبية"؛ و"منظمة التحرير" أو "حركات المقاومة" هي في الإعلام الإسرائيلي المُضاد "منظمة أو حركات تخريبية" أو "إرهابية"، أو "أصولية متطرّفة"؛ و"الفدائي" أو "الثائر" أو "المجاهد" أو "المقاوم" أو "المقاتل" هو "مُحرّب" أو "مطلوب" أو "مطارّد" أو "إرهابي"؛ و"عمليات المقاومة أو الجهاد" هي "عمليات تخريبية" أو "أعمال عنف"؛ و"العملية الاستشهادية" هي "عملية انتحارية"؛ و"الاستشهادي" الذي يُفقدّها هو "انتحاري".

وهو تزوير للمعاني يتردّد صداه عند المُحتلين في أيّ مكان، كاحتلال الأمريكان لأفغانستان والعراق مثلاً، والأثيوبيين للصومال، حيث بات الترويح له بأنه تحرير ونشر للحريّة والاستقرار، وإعمار للبلاد، مع ملاحظة كيف أنّ استعمال كلمة "إعمار" في هذا المقام الاعتصابي يُدكرنا بكلمة "استعمار" التي تدور معانيها في لساننا العربي حول العمار والتعمير أو البناء، ثمّ انحطت دلالتها على أيدي المزوّرين وأذناهم لتدلّ على معاني الاعتصاب

(١) ولعل هذه الظاهرة المقصودة - في هذا السياق - يصدّق عليها قوله سبحانه وتعالى: "يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ". ينظر: سورة النساء. الآية: ٤٦. وسورة المائدة. الآية: ١٣. وقوله أيضاً: "يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ" المائدة. الآية: ٤١.

والاحتلال والإذلال، وهو المعنى الذي طغى على معناها الأول الدالّ على الخير والانتعاش، ولم يسلم من استعماله أبناء الشعوب العربية ومنها المغتصبة، وبذلك دخلت الكلمة بمعنيها الأصيل الأول، والدخيل المخترع في مجال الأضداد.

وانظر إلى هذا الحرف الدلالي الذي لايس كلمة "مستعمرة" المشتقة من جذر الكلمة السابقة (ع. م. ر)، إذ أطلقها المغتصبون على أراض يستولون عليها بطرقهم غير المشروعة ليقيموا فيها منازل لهم، ومشاريع زراعية أو صناعية أو غيرها.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن محترفي التزوير الدلالي عندما تنبهوا إلى تحوّل دلالة مصطلحهم "مستعمرة" إلى معاني الاغتصاب والسيطرة غير المشروعة في أذهان أهل الأرض عملوا على إبعادهم عنه، واستعملوا كلمة "مستوطنة"، وأدعوا معها كلمات "استوطن" و"الاستيطان" و"المستوطن" و"المستوطنين".

وكما هو ملحوظ فقد وقع أكثرُ ساسنينا ومحللينا وإعلاميينا في براثن هذا الحرف بل التزوير الدلالي الخبيثة نوايا أصحابه، حيث وجدنا أكثر وسائل الإعلام العربي والفلسطيني في مجالته المتنوعة كالإذاعة المسموعة والمرئية والصحافة الورقية والإلكترونية واللقاءات والبرامج السياسية وغيرها تستعمل هذه المفردات، وجدنا القلة تنبّه لهذا الحرف الدلالي فتستعمل كلمات "اغتصب" و"الاجتصاب"، و"المغتصب" و"المغتصبين".

- الترجمة المقاومة

إذا كان التزييف أو التحريف الدلالي من أهم خصائص الخطاب الموعول المرتكز على تسخير الأمور لصالح سدّته فإننا نرى فيما اصطّلحنا عليه بـ "الترجمة المقاومة"، أو إن شئت فقل: بصفة عامة "مقاومة الضار" في خطاب العولمة - طريقاً مهماً ينبغي أن يلجأ له الناس ولاسيما الإعلاميون والساسة في الدود عن هويّتهم، ومواجهة ما يُستلب منها.

وللإعلامي الحصيف في هذا المقام دورٌ كبيرٌ في مقاومة الضار من الخطاب الموعول؛ فلا ينقل لمستقبله في مقالاته أو منشوراته المسموعة أو المكتوبة ما يتعارض ومصلحهم أو خصائصهم التي يتميزون بها، ويسعى أعداؤهم إلى اختراقها وهدمها.

ونقف في هذا المقام عند اللقاءات أو المؤتمرات الصحفية التي يعقدها الساسة أو الناطقون باسمهم لتتساءل عن مدى مقدرة الإعلامي المترجم على التعديل أو التكييف: هل يراعي مقام المنتج أو المخاطب حين يحرف الألفاظ والتراكيب عن دلالاتها لتعبّر عن معانيه الضالة التي تخدم مصالحه؟، أو هل يُغيّر المعنى ليتفوق مفهوم المجتمع الذي يُشكّل المقام الأصل الذي يُعبّر عن المعنى الحقيقي؟، وأين الموضوعية؟ وأين مراعاة المقال للمقام في هذا المجال؟

أقول:

إذا كان من وسائل الموعولمين تغيير معاني الألفاظ لخدمة مفاهيمهم وتحقيق مصالحهم فإنّ محاربة هذه الجوانب الضارة في خطابهم الإعلامي أمرٌ لا مفرّ منه؛ فمن الطبعي أن يكون لكلّ

فعلٍ ضارٌّ ردُّ فعلٍ مُعاكسٍ له في الاتجاه، وأنَّ السياسةَ وتحقيقَ المصالحِ الوطنيةِ - فيما نرى - ليس فيها مجالٌ للعواطفِ أو الموضوعيةِ التي يَنبُتُ عنها الأذى والإضرارُ، ويُسكَلُ عمَلُ الترجمةِ الإعلاميةِ مجالاً خصباً يمكنُ الاستفادةَ منه في توضيحِ مقاصدِ هذه الدراسة، وهو موضوعٌ يمكنُ لطلبةِ الدراساتِ العليا في أقسامِ اللغةِ العربيةِ والإعلامِ حوضُ غماره، وتقديمِ دراساتٍ جادَّةٍ في تحليلِ اللغةِ والمضمونِ.

وعليه فنحن في هذا المجال نُحِثُ المترجمينَ والكُتَّابَ والمثقفينَ والإعلاميينَ والساسةَ وغيرَهم على عدمِ التَّقَيُّدِ في الترجمةِ إلى العربيةِ بالمعنى الأصلِ للكلمةِ المترجمةِ عندما يخالفُ المضمونَ العربيَّ النابعَ من البيئةِ العربيةِ، والمعبَّرُ عن المقامِ العربيِّ الأصيلِ.

ومن أمثلة ذلك كلمة "Terrorism" التي تعني "الإرهاب" أو "العنف"، ويستعملها المغتصبون في خطابهم للدلالة على مقاومةِ المعتصِّبينِ المقهورينِ وثورتهم وجهادهم ونضالهم ضدَّ قاهريهم ومغتصبي ثرواتِ بلادهم، وهذا استغلالٌ غيرُ أخلاقيٍّ؛ لأنه - كما هو واضح - يَحْرِفُ الدلالةَ فلا يُسمَّى المُسمياتِ بأسمائها الحقيقيةِ التي أقرَّتها موثيقُ الشرعيةِ الدوليةِ وقراراتُ الأممِ المتحدةِ، وإنما يسميها بما يوافقُ هوىِ مصالحه ومآربه.

وفي مثل هذا المقام فإننا نرى ضرورةَ أن يُستَعْنَى عن المعنى الذي يريدُ المغتصبونَ إحلاله وتروسيخه في الأذهان؛ ليسودَّ عليه المعنى العربيُّ المعبَّرُ عن حقيقةِ الأمورِ.

وفي مخاطبةِ مجتمعِ المعنى الوافدِ يَتَوَجَّبُ على الساسةِ والمحللينَ والمترجمينَ وغيرهم استعمالُ الكلمةِ الأجنبيةِ الدالةِ على المفهومِ العربيِّ ليسَ غيرَ، وعليه فإنَّ استعمالَ كلماتِ "Resistance" أو "Revolution" في مثل هذا السياقِ هو المطلوبُ، أو "Intefadah" إنتفاضة: دلالة على قوميةِ الشعبِ الفلسطينيِّ كلِّه في مختلفِ طبقاته وبيئاته المحتلة - صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً - ضد الاحتلالِ الإسرائيليِّ الغاصبِ لحريره وأرضه؛ وهي دلالةٌ عبَّرتُ عن جانبٍ منها، فقلت: (المتقارب)

حِجَارَةٌ طَاقِلٌ، وَمَقْلَاحٌ شَيْبَلٌ	وَعَكَازُ شَيْخٍ، تَجَلَّى النَّهَارُ
وَدَعَوُهُ أُمَّ، وَتَوْفِيْقُ رَبِّ	تَوَحَّدَ كُلُّ فَكَّانِ الْقَرَارِ
كَرَّرْنَا فَرَّرْنَا قَتَلْنَا أَسْرْنَا	وَلَكِنْ عَدَوْنَا حَدِيداً وَنَارُ

إننا نوكدُ في سياقِ الإعلامِ العربيِّ ضرورةَ التركيزِ على اختيارِ الدلالةِ التي تُعبِّرُ عن الفكرِ العربيِّ عند الترجمةِ من اللغاتِ الأخرى إليه، أو لغيره مما يخالفُ هويتهُ أو مُعْتَقَدَهُ أو فِكرَهُ أو ثقافتهُ، وأن يكونَ هناكَ تَبْيِهُظٌ تامٌّ لكلِّ ما من شأنه أن يمسَّ بدلالاتِ الألفاظِ العربيةِ كما يعيها عقلُ العَرَبِ الجَمْعِيِّ ومصالحهم في الحفاظِ على دلالاتهم اللفظيةِ والمعنويةِ.

وإن كانَ هناكَ بُدٌّ من التقيدِ بالترجمةِ في النصوصِ الرسميةِ فإن من واجبِ الرؤساءِ أو المسؤولينِ العربِ أن يُصِرُّوا على اللفظِ والمضمونِ الذي ينبعُ من أعماقِ الوعيِ الجمعيِّ لمجتمعهم العربيِّ، وإنَّ على المترجمِ والإعلاميِّ الحاذقِ أن يلجأَ إلى التوضيحِ تنبيهاً للأذهانِ.

- **عدم التَّحَرِّي والتَّسَرَّع في إعلان الخبر:**

ومن دلائله ما اصطَلِحَ على تسميته بـ "خبر عاجل"، وخاصةً في وقتِ القصفِ الإسرائيليِّ أو اجتياح الجيش الإسرائيليِّ للأراضي الفلسطينية؛ حيث التسابُّقُ على نشر أخبار هذه الأحداث؛ الأمرُ الذي قد يوقِّعُ كثيراً في أخطاءٍ تَمَسُّ بالمصداقية والمهنية، حيثُ عدمُ تَوْحِي المرسلين للدقة في وَصْفِ الحَدَث، وعدمُ تَنْبِيهِهم من إحصاءات الجرحى أو الشهداء أو الأضرار، وعدمِ تَرْيُّبِهِم في الإعلان عنها من خلال الجهات الرسمية المنوط بها هذه المهمة.

وتبلِّغُ المأساة أوجهاً عندما يعلنُ المراسلُ أو الإذاعة عن اسم شهيدٍ أو أكثرَ ثمَّ تُصَرِّحُ الجهاتُ الرسميةُ المسؤولةُ كوزارة الصحة ممثلةً في إدارة المستشفى أو ناطقها الإعلاميُّ الرَّسْمِيُّ أسماءً أو أعداداً غيرَ التي أُذيعتُ أو أُعلِنَتْ.

- **عدم المصداقية:**

يدفعُ الانتماء الحزبيُّ أو الفصائليُّ أو الفكريُّ أو المذهبيُّ أو الطائفيُّ أو العَصَبِيُّ إلى الانحياز ومجانبة الإفصاح عن الحقيقة، ومن أمثلة ذلك في إعلامنا الفلسطيني:

** ما يحدث في الانتخابات، ومن ذلك ما جرى في انتخابات وزارة الحكم المحلي للبلديات، إذ وجدنا كلَّ حزبٍ أو فريقٍ يُعَلِّنُ فوزه قبل أن تصلَ الصناديقُ إلى لجنة الانتخابات العليا، وذاعت في مجال الانتخابات بصفةٍ عامةٍ كلمة (كَبُود) دالةٌ على أحد معنيين: الأولى - اختيار الناخب أو المقترح لجميع أفراد قائمةٍ أو تحالفٍ، والآخر الدلالة على الاكتساح أو الفوز الساحق، والهزيمة للجانبِ المُنافِس.

وانتقلت هذه الكلمة من هذا المجال الإعلاميِّ السياسيِّ إلى مجالٍ دلاليٍّ آخرَ حيثُ يستخدمها بعضُ الطلبة للدلالة على حصولهم على الدرجة النهائية في الامتحان.

** إظهار الأمر أو الوضع على أنه في أحسن صورهِ، وأنَّ بؤادر الحَلِّ أو الاتفاق قريبة جداً، ولكنَّ هذه الوعود والأمانِي تذهب زفراتُ أصواتها أدراجَ الرياح فلا يكون لها أصداء بل صدى في أرض الواقع.

وَجَلَّتْ هذه الظاهرة في مجادلاتِ الاتفاق على وثيقة الأسرى أو إنَّ شئتُ المصطلحَ الآخرَ وثيقة الاتفاق الوطني، ومفاوضات تكوين حكومة الوحدة الوطنية، وفضَّ الاشتباكات المسلَّحة بين حركتي فتح وحماس، وإطلاق سراح الأسير الإسرائيليِّ وقرب الإعلان عن التوصل إلى صفقةٍ لإطلاق سراح أسرى فلسطينيين من السجون الإسرائيلية بدلاً منه... الخ.

- **الاشتغال بما يهْمُ الحزب:**

نظراً للأوضاع الأمنية المضطربة، وتغلغل ظاهرة الفوضى والفلتان الأمنيِّ في أراضي السلطة الوطنية الفلسطينية وخاصةً في قطاع غزة وجدنا السلطة ومنها وزارة الإعلام تفقد

سيطرته التامة على وسائل الإعلام ولاسيما الخاصة التي يرتبط أكثرها بالأحزاب والفصائل والحركات.

وعلى افتراض وجود خطة إعلامية وطنية واضحة تسير وسائل الإعلام الفلسطينية وفق بنودها فإن فقدان السيطرة الرسمية، وعدم القدرة على الإلزام والمحاسبة يفتح الأبواب على مصاريحها لينفذ منها ما يحقق المصالح والمآرب الذاتية ولاسيما الأهواء والآراء والأفكار الحزبية... الخ.

إن انجرار الإعلام المفرط ليكون ناطقاً بل بوقاً مبعراً بلسان ما يُمليه عليه أقطاب الحزب أو أصحاب المصالح الذاتية سيفقده المصداقية والموضوعية والحيادية؛ وسيجعله يتعد رويداً رويداً عما يصنّف في الصالح الوطني العام، وقد يُلبس في كثير من الأحيان ألبسة هجوميّة، وأخرى واقية تُصد عن انتماؤه بعيداً عن شرف الانتماء إلى موضوعية المهنة الإعلامية أو أمانة النقل.

وإذا كانت الهيمنة الحزبية أو الفائدة المصلحية الخاصة تُسكّل مظاهر إعلامية تحمل في طبيعتها جوانب سلبية فإن ما تحمله من بعض فوائد قد يدور أكثره في حدود المنافع الضيقة التي ينبغي أن يُتنازل عنها للصالح الوطني العام.

إن انشغال الإعلام الفلسطيني بقضايا بلده في مواجهة الاغتصاب ونتائجه المأساوية لهو المظهر المنقعي العام الذي ينبغي أن يُسخر له فكره وقلمه، وهو المنهج الذي اختطه وصاغ دُرره من قبل وجدان الشعب الفلسطيني الشاعر إبراهيم طوقان (ت. ١٩٤١م) حين قال^(١):
(مجزوء الرمل)

لا لِحزبٍ أو زعيم	إن قلبني لبلادي
أو صديقٍ لي حميم	لم أبعه لشقيق
مرةً غير سليم	ليس مني لو أراه
نيط منه بالصميم	ولسانني كفوادي
وحاديثي كقديمي	وعدي يشبه يومي
لا ولا كئيدٍ لي	لم أهب غيظ كريم
بشقاقي أو نعيمي	غايته خدمه قومي

وعليه فإن هناك موضوعات أو قضايا يجب على إعلامنا الفلسطيني - أيّاً كانت الأحوال - ألا يُغفل الحديث عنها؛ لتبقى حية في ذاكرة المواطن العادي، ومن هذه القضايا والمشكلات: النكبة، وتهويد القدس، والحفريات تحت المسجد الأقصى، ودعم المقدسيين، واللاجئين والنازحين

(١) طوقان، إبراهيم عبد الفتاح. (١٩٨٨م). قصيدة (غايته). ديوان إبراهيم طوقان. دار العودة. بيروت. ص ٣٢٣.

وحقوقهم وعودتهم، والأسرى، والمقاومة، وعودة الأرض، وإقامة الدولة المستقلة، وجدار الفصل العنصري، والمناسبات الوطنية الهادفة، وبناء البيت الفلسطيني ... وهلمَّ جراً.

إنَّ المتأملَ لخطابنا الإعلاميِّ المحليِّ المسموع والمُرئيِّ في أيام تفاقم الأزمة الحزبية، وحدوث الاقتتال والتطاحن بين قطبيِّ الرّحى: حركتي "حماس" و "فتح" ليلحظ أنه نسيَ أو تناسى هذه الموضوعاتِ أو المحاورَ المهمةَ في تاريخ النضال الفلسطيني؛ فلمَّ يُعدَّ يُعنى بها عنايته بالرؤى الحزبيَّة الضيقة، وانبرى كلُّ منهما يُؤلِّبُ على أخيه، ويُعلنُ أنه على الحقِّ، أمَّا الآخرون من رجالات الأحزاب الأخرى وأبواقهم الإعلامية فهم وإنَّ عبَّروا عن استنكارهم لما يحدِّثُ بينَ "الإخوة الأعداء"، وسعوا إلى إصلاح ذات البين؛ فإننا لا نعدُّمُ روائح الحزبية التي بدت بطرائقها المتنوعة تُروِّجُ لأفكارها الخاصة، وتهدِّيُ الشارع لمناصرتها؛ بغية تحقيق مآرب فئويَّة ضيقة.

- قلة العناية بقضايا العالم من حولنا:

وتكاد تكون ظاهرةً عامةً في إعلامنا الفلسطيني، ولاسيما إذاعاتنا المحلية الخاصة والعامة، وإنَّ أكثرَ ما يجيء في إعلامنا بهذا الخصوص يكون خاصاً بالقضية الفلسطينية، أو مقتبساً من وكالات الأنباء والتقنوات الإعلامية الأخرى، وهو ما نلمسه أيضاً في مواقع الصحف أو المنشورات الإلكترونية، مثل مواقع: "شبكة فراس الإعلامية" و "وكالة الأنباء الفلسطينية- وفا" و "وكالة فلسطين برس" و "المجموعة الفلسطينية للإعلام" و "وكالة معاً الإخبارية" و "نداء الوطن" و "شبكة الكوفية" و "فلسطين الآن"، وهي أكثر ما تُعنى بقضايا الوضع الفلسطيني المحلي.

ويجيءُ اهتمامُ هذه الصحف الإلكترونية بأخبار الأقطار العربية بشكل عارض دون تحليل، ولماماً يأتي هذا النادر الذي نقرؤه فيها فيما يختصُّ بأحوال العالم غير العربي من حولنا.

على أنَّ الإنصافَ يقتضي أنْ نذكرُ في مضمار العناية بالأوضاع العالمية السياسية والاقتصادية "النشرة الإلكترونية" التي يُصدرها "موقع كنعان"، - ويرسلها للقراء عبْر البريد الإلكتروني يومياً-؛ فهي تختصُّ بالمقالات التحليلية التي ينشرها كتّاب محليين وغيرهم بالعربية، وأيضاً بالإنجليزية أحياناً.

وكذلك نستثني الصحافة الفلسطينية المكتوبة التي نراها مع انشغالها وانكبابها على الوضع المحليِّ تُعرجُ على الأوضاع العالمية أيضاً ولاسيما أخبار العالم الإسلامي وقضاياها.

وإذا كانَ الاهتمامُ بالقضايا المحلية من مظاهر ما أسميناه في هذه الدراسة بالإعلام المنفَعِي فإنَّ طغيانه في إعلامنا الفلسطيني قد يكون له ما يُبرِّره في ظلِّ شعور الفلسطيني بحاجته الماسَّة إلى التحدُّث عن قضاياها بلسانه التي حُرِّمَ طويلاً من التحدُّث عنها، وضيق ما يمتلك من إمكاناتٍ ماديَّة داعمة، وحصار خانق يمنعه من التنقل بين ربوع وطنه المخنوق هوأوه.

خاتمة وتوصيات

نودُّ في ختام هذه الدراسة تقديم بعض التوصيات التي نرى أنَّ الأخذَ بها قد يُسهمُ إسهاماً قوياً في تفعيل الحركة الإعلامية الفلسطينية ودعمها، وتوجيه خطابها الإعلاميِّ الوجيه السليمة التي تصبُّ في الارتقاء به، وتعزيز ثقة الإعلام العالميِّ به، والمحافظة على سلامة الأداء اللغوي فيه.

أولاً- توصيات في مجال اللغة:

لعلَّ من أهمِّ ما ركزت عليه هذه الدراسة يأتي في مجال صياغة الخطاب العربيِّ والفلسطينيِّ في إطار الربط الوثيق بين اللغة العربية والإعلام العربيِّ الذي نشأ وترعرع في أحضان دارسي العربية، وفي هذا المجال فإنَّ الدراسة ترى أنه:

يتوجب على أصحاب القرار في السلطتين التشريعية والتنفيذية تطبيق ما نصَّ عليه القانون في جميع البلدان العربية- مشرقاً ومغرباً- بشأن أنَّ العربية هي اللغة الرسمية للبلاد؛ وذلك تعبيراً عن السيادة اللغوية أهمَّ عناصر الاستقلال والتميز عن غيرنا، والاعتزاز بانتمائنا اللغويِّ، وهويتنا الثقافية التي تشكِّل لغة الضادِّ وعاءاً أميناً لها في الماضي والحاضر والمستقبل.

ولتعزيز مكانة هذا القانون وتفعيل تطبيقه على أرض الواقع نوصي بالتالي:

- رفض أي مشاريع أو توصيات تُعزِّزُ مكانة اللغات الأجنبية أو العاميات العربية في وسائل الإعلام أو غيرها على حساب لغتنا العربية الفصيحة: رمز هويتنا الممتدة معنا منذ الأزل، وحافضة تراثنا، ورابطة عقد التآخي والتوافق بين أبناء الأمة العربية على اختلاف الأديان أو المذاهب، ومفتاح صِلتنا- نحن العرب- بغيرنا من أبناء الأمة الإسلامية.
- ضرورة تشكيل لجنة التدقيق اللغوي: سواء في المؤسسة الإعلامية الرسمية أم الخاصة، تكون مهمتها تقويم الأغلط اللغوية المنطوقة والمكتوبة، وإصدار المنشورات التقويمية وتوزيعها على الجهات المعنية بوسائل النشر المتنوعة، ولاسيما النشر الإلكتروني لسرعته وانتشاره بين الأفراد والمؤسسات.
- عدم منح أية مؤسسة إعلامية ترخيصاً بمزاولة العمل إلا بعد اختبار كفاءة لجنتها، ومدى فعالية أدائها اللغوي، واشتراط فعالية هذه اللجنة، وبيان أنَّ استمرار الترخيص مربوط بمدى الالتزام بالتنفيذ.
- متابعة لغة الإعلانات، وعدم الترخيص في أن تكون اللغة العربية الفصيحة هي اللفظ المعبر عنه، وليس في هذا الأمر تُعدُّ على اللغات الأجنبية أو العاميات، وإن دعت الضرورة إلى استعمال أية لغة أجنبية فينبغي نطقها أو كتابتها بعد اللغة العربية: لغة البلاد، وفي مجال الإعلان بالعامية ينبغي التخفف منها في الإعلانات، والأفضل عدم اللجوء إليها ولاسيما في الإعلانات المكتوبة.

ثانياً- توصيات بشأن مضمون الخطاب وأدائه:

لفتت الدراسة إلى بعض النواقص في مجال الإعلام الفلسطيني كالأهتمام بالأمر الفصائليّة على حساب الموضوعات الوطنيّة العامّة؛ وعدم الموضوعية في هذه الجوانب، وما إلى ذلك من مظاهرٍ ينبغي لإعلامنا أن ينأى بنفسه عنها، وفي هذا المجال فإنّ الدراسة توصي بـ:
وضع سياسة إعلامية وفق خطة علمية يضعها أكاديميون وخبراء بغية توحيد الخطاب الموجّه إلى الداخل والخارج، وضرورة اختيار الكفاءات المناسبة في أية مؤسسة إعلامية، وفي هذا المقام تُوصي بضرورة:

- *التدقيق في اختيار الناطق الإعلامي الذي ينطق باسم المؤسسة، وألا يُسمح لأيّ كان التصريح باسمها إلا من خلاله.*

- *التمييز بين الناطق الإعلامي الذي يوجّه خطابه إلى الجمهور المحلّي، والخارجي، وفي هذا المقام حدّاً اختيار الناطق الإعلامي الخبير بشؤون من يتوجّه إليه بخطابه، ولا ننس- في هذا المقام- القاعدة البلاغية التي توقّنا عندها كثيراً في هذه الدراسة، وتُوصى على أن لكلّ مقام مقالاً.*

- *وفي مجال مضمون الإعلام الفلسطيني فإننا توصي بضرورة:*

- *أن يضع الإعلاميون ميثاق شرف يكون من أهم بنوده عدم تغليب الحزبية أو الفئوية في مضامينهم.*

- *أن تكون هناك مضامين ثراعي جميع وسائل الإعلام الفلسطيني الرسمية والخاصة التحدث أو الكتابة فيها، وألا تتركها للمناسبات التي قد تمرّ دون تفعيل لها؛ وذلك كمضامين الثوابت الوطنية التي لا خلاف فيها، ولا مصلحة أو تفكير لأيّ حزب أو فصيل أو تنظيم في غرض الطرف عنها.*

وهنا نرى أنه يتوجب على المختصين والخبراء كتابة العناصر العامة لها للاسترشاد بها، وجدولة نشرها بحيث تلتزم وسائل الإعلام الفلسطينية جميعها بإفراز أحياز مرموقة لها في برامجها، ويُفعل في المضامين الوطنية الجديدة ما نقترحه في مضامين الثوابت.

ثالثاً: توصيات بشأن المتابعة

تشكيل لجنة المتابعة والإيصال، وتكون مهمتها متابعة ما يصدر عن المؤسسة الإعلامية من توصيات ومقترحات؛ لإيصالها إلى الجهات المعنية بالتنفيذ أو المتابعة.

وتوضيحاً لهذه التوصية أو الاقتراح أقول: قد يُجري الإعلامي صحفياً أم إذاعياً مقابلة أو لقاء يوجّه الضيف فيه توصية أو اقتراحاً أو نداءً إلى جهة ما، والملحوظ أن كثيراً من هذه الأمور لا يكون صداها- في الأغلب الأعم- إلا زفيراً يُسهم في زيادة تلويث هواء الجو، وهنا تكون مهمة

هذه اللجنة التوصيل والمتابعة، والجمع بين مصدر التوصية والجهة المعنية إذا استلزم الأمر؛ وذلك للتوضيح أو المناقشة التي تُصَبُّ في صالح المُقترح.

وفي مجال المؤتمرات والندوات العلمية ولاسيما التي تعقدها الجامعات فينبغي ألا تكون مُجرَّد حشودٍ أو تجمُّعات فيها تُقال الكلمات، وتُثار المساجلات، وتُقرَع الحُججُ بنظائرها الداحضة، ثم ينتهي الأمر بانفضاض كلِّ إلى مكانه ليخلد إلى ذكرياتٍ طللٍ قد تُسترجع فيها ما أصدره المتحدثون من مقترحات، وأتاتٍ مؤلمةٍ ناقدةٍ، وصرخاتٍ مُؤيِّبةٍ دافعةٍ، وزفرياتٍ حارةٍ كانت قادرةً أننذ على تأجيج العواطف، وإلهاب المشاعر، وإنعاش الصدور، وبعث الأمل في العقول، وعندما يصحو إلى واقعه بعد هذه الذكريات الجميلة يعود إلى الواقع المرير الذي ينحصر فيه دورٌ ما تذكّره- بما قيل فيه أو أُثير- على زيادة المعاناة الفكرية، إضافة إلى ما سببته زفريات أصوات المتحدثين وأنفاسهم الملتهبة من تلويثٍ لهواءٍ زيدٍ في مشاكله.

إن من الأسئلة التي تطرح نفسها في مقام المؤتمرات وورش العمل والندوات واللقاءات العامة:

- هل تنحصر مهمتنا في الجامعة في البحث والتنوير، وذلك بتحسس المشكلات وعرض أسبابها، واقتراح الحلول التي كثيراً ما توصم بأنها نظرية؟!.
- هل نحن في الجامعات قادرون على المتابعة، أم إنَّ دورَ المتابعة والتنفيذ منوطٌ بغيرنا من الوزارات بمؤسساتها وهيئاتها التي تمتلك السلطة التنفيذية؟!.
- نحن نرى أنَّ على الجامعات أن تُشَبَّ عن قيود أسوارها فتأخذ لها- بما تمتلك من كفاءاتٍ خبيرة، وشبابٍ قادرٍ على التكيف، ومستعدٍّ للتطوُّع وفق خطةٍ منهجيةٍ- مواقع متميزة في خرائط المتابعة وآليات التنفيذ؛ للارتقاء بنفسها، وخدمة مجتمعاتها، ونرى ضرورةً تميّزها بالجانب العمليّ التنفيذي في مؤتمراتها وندواتها وورش عملها، ونحن نقترح- في هذا المقام- أن تُقرَّر جامعاتنا عقب هذه الأعمال لجنةً من ذوي الخبرة والقدرة على التواصل والتفاعل- من جامعة المؤتمر وغيرها- تتلخص مهمتها في:
- قراءة البحوث وأوراق العمل لتستخلص منها التوصيات والمقترحات التي قدمها المشاركون والمهاورون في المؤتمر.
- إرسالها إلى الجهات المعنية بها؛ للاطلاع عليها.
- متابعة مناقشتها ووضع آليات تنفيذها معها.
- المشاركة في الإنجاز إذا تطلّب الأمر ذلك.

رابعاً- توصيات لوزارة الإعلام:

ليس من شك في أن من أهم أعمال هذه الوزارة:

- المحافظة على سلامة اتجاهات البوصلة الإعلامية بعيداً عن اتجاه الوزير أو المسئول، وإن ألقب الإعلام الذي تُدرّسهُ كليات الإعلام يقوم على مطالبة طلبتها بتحري الموضوعية والابتعاد عن الأهواء في الكتابة.
- ومن هذا الوعي بأهمية موضوعية الإعلاميّ فإننا نرى أن من أهم ما يُحقّق لوزارة الإعلام المصدقية والقدرة على أن تكون طرفاً مقبولاً عند المؤسسات الإعلامية- أيّاً كانت انتماءاتها وأهواؤها- هو تحريها للموضوعية في التعامل مع الجميع.
- الإشراف على العمل الإعلامي في جميع المؤسسات الإعلامية في البلد؛ ولكي يتسنى لها القيام بهذه المسؤولية، والنجاح في استثمار الإعلام لما يخدم المصالح العامة المشتركة نرى ضرورة أن تقوم الوزارة بتشكيل لجان فيها عمادها الكفاءة والقدرة على العطاء تكون مناظرةً للجان الموجودة أو المقترحة- في هذه التوصيات- في المؤسسات ذات الصلة؛ فهذه اللجان الوزارية تكون بمثابة المرجعية الموثوقة المعتمدة والمعتمدة، ويكون من أهم وظائفها الرصد والمتابعة، وتمتلك سلطات التشريع والتنفيذ والمراقبة والمحاسبة.

ثبت المصادر والمراجع:

- الأمدي، سيف الدين أبو الحسن علي. (ت. ٦٣١هـ). (١٣٣٢هـ = ١٩١٤م). الإحكام في أصول الأحكام. (ج/٢). مطبعة المعارف.
- الأصفهاني، أبو الفرج. (ت. ٣٦٥هـ). (د.ت). الأغاني. ط٢. (ج/٣). شرحه: أ. سمير جابر. دار الفكر. بيروت.
- أنتوني أيستوبت. (١٩٨٥م). "الخطاب الشعري بوصفه أيديولوجياً". مجلة فصول. ٥(٤). ترجمة حسن البنا.
- الأوثيبي، أبو عبيد البكري. (ت. ٤٨٧هـ). (١٩٥٨م). فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. ط١. حقه وقدم له: د. عبد المجيد عابدين، ود. إحسان عباس. مطبوعات جامعة الخرطوم. مطبعة مصر. الخرطوم.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. (ت. ٤٠٣هـ). (١٩٨٠م). إعجاز القرآن. ط٥. تحقيق السيد أحمد صقر. دار المعارف. مصر.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني. (ت. ٢٥٥هـ).
- ** (١٩٨٥م). (د.ت). البيان والتبيين. ط٥. (ج/١)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. + طبعة مكتبة الخانجي. القاهرة.
- ** (١٩٣٨م). الحيوان. (ج/١). الناشر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة.

- الجرجاني، عبد القاهر. (ت. ٤٧١هـ). (١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م). دلائل الإعجاز. ط٦. صح أصله: الإمام محمد عبده، والشيخ محمد محمود الشنقيطي، وصحح طباعته، وعلق حواشيه: السيد محمد رشيد رضا. مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده. ميدان الأزهر.
- ابن جعفر، أبو الفرج قدامة. (ت. ٣٣٧هـ). (١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م). نقد الشعر. ط١. تحقيق وتعليق: د. محمد عبد المنعم خفاجي. الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة.
- الجمحي، محمد بن سلام. (ت. ٢٣١هـ). (د.ت.). طبقات الشعراء. إعداد: اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي. دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت.
- الخفاجي، ابن سنان أبو محمد عبدالله بن محمد. (ت. ٤٦٦هـ). (١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م). سر الفصاحة. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (ت. ٤٤٩هـ). (١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م). مقدمة ابن خلدون. ط٦. دار القلم. بيروت. لبنان.
- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن. (ت. ٤٦٣هـ). (١٤٠١هـ = ١٩٨١م). العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده. ط٥. (ج/١). حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل. بيروت.
- السيوطي، جلال الدين. (ت. ٩١١هـ). (١٤٢٣ = ٢٠٠٣م). الإتقان في علوم القرآن. ط١. (ج/١). ويليه كتاب إعجاز القرآن للقاضي الباقلاني. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت.
- الشايب، أحمد. (١٣٦٩هـ = ١٩٧٦م). الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية. ط٧. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد اليماني الصنعاني. (ت. ١٢٥٠هـ). إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر.
- ابن طباطبا، محمد أحمد. (ت. ٣٢٢هـ). (١٩٨٠م). عيار الشعر. دراسة وتحقيق: د. محمد زغول سلام. الناشر: منشأة المعارف. الإسكندرية. ومن قبل كان تحقيقه ونشره بالاشتراك مع د. طه الحاجري رحمه الله.
- طحان، ريمون. (١٩٧٢م). الألسنية العربية، (٢). ط١. سلسلة الألسنية. تصدر بإشراف: د. أنيس فريجة ود. ريمون طحان. دار الكتاب اللبناني. بيروت.
- طوقان، إبراهيم عبد الفتاح. (١٩٨٨م). ديوان إبراهيم طوقان. دار العودة. بيروت.
- ابن عبد ربه الأندلسي. (ت. ٣٢٨هـ). (١٩٨٧م). العقد الفريد. ط٣. تحقيق: د. مفيد قميحة. دار الكتب العلمية. بيروت.
- إسماعيل، عز الدين. (١٩٥٨م). الأدب وفنونه- دراسة ونقد. ط٢. دار الفكر العربي.

- العسكري، أبو هلال. (ت. ٣٩٥هـ). (١٤٠٤هـ = ١٩٨١م). الصناعتين: الكتابة والشعر. ط١. تحقيق د. مفيد قميحة. دار الكتب العلمية. بيروت.
- علي بن أبي طالب. (ت. ٤٠هـ). ديوان الإمام علي أمير المؤمنين، وسيد البلغاء والمتكلمين، ووليّه القصيدة الكثرية. جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، الناشر: المكتبة الثقافية. بيروت. لبنان، د.ت.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي. (ت. ٥٠٥هـ). (١٣٢٤هـ). المستصفى من علم الأصول. ط١. (ج٢). وبهوامشه: فواتح الرحموت لعبد الله محمد بن نظام الدين الأنصاري. بشرح: مسلم الثبوت لمحب الله بن عبد الشكور. المطبعة الأميرية ببولاق.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. (ت. ٢٧٦هـ). (١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م). أدب الكاتب. ط١. شرحه وكتبه هوامشه وقدم له: أ. علي فاعور. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان..
- القرطاجني، أبو الحسن حازم. (ت. ٦٨٤هـ). (١٩٨١م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. ط٢. تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان.
- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر. (ت. ٧٣٩هـ). (١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م). الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع). ط١. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.
- المجمع الثقافي- أبو ظبي. (١٩٩٧-٢٠٠٣م). الموسوعة الشعرية. الإصدار الثالث. قرص مُدمج.
- محجوب، فاطمة. (١٩٧٦م). دراسات في علم اللغة. الناشر: دار النهضة العربية. القاهرة.
- المسدي، د. عبد السلام. (د.ت). الأسلوبية والأسلوب. الدار العربية للكتاب. ليبيا. تونس.
- النويري، شهاب الدين. (٧٣٣هـ). (١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م). نهاية الأرب في فنون الأدب. (ج/٧). تصحيح: أحمد الزين. دار الكتب المصرية. القاهرة.
- الهمداني، عبد الرحمن بن عيسى. (ت. ٣٢٠هـ). (١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م). كتاب الألفاظ الكتابية. منشورات دار الهدى للطباعة والنشر. توزيع: المكتب الإسلامي.
- Bloomfield L. Language, George Allen & Unwin LTD - London, Twelfth Impression.